ما الذي يكّون المراسل الجيد؟

"الصفات والسمات الوحيدة المطلوبة للنجاح الحقيقي في الصحافة هي البراعة المبدعة، والأسلوب المعقول، وقليل من المقدرة الأدبية".

نيكولاس تومالين

المراسلون هم أبطال الصحافة. أما مهمتهم فهي اكتشاف الأشياء. المراسلون أول من يصل إلى مكان الحدث، وسط فوضى وشواش التو والآن، ليدقوا على الأبواب الموصدة، ويركبوا المخاطرة أحيانا، من أجل اقتناص بدايات الحقيقة. إن لم يفعلوا ذلك فمن يفعل؟ المحررون؟ المعلقون؟ هنالك بديل واحد للمراسلين: قبول النسخة المرخصة من الحقيقة، تلك التي يختار رجال الأعمال، والبيروقراطيون، والسياسيون تقديمها لنا. فبرغم كل شيء، ما الذي يعرفه المعلقون لولاهم؟

يعاني المراسلون - مثل جميع الأبطال - من مثالب وعيوب. سمعتهم سيئة - كمجموعة - مقارنة بالآخرين؛ نظرا لالتجاء عدد كبير منهم، بشكل روتيني، إلى تضخيم وتبسيط وتشويه الحقيقة، بما يكفي لجعل أجزاء من المهنة مرادفة للخداع المتعمد والتضليل المقصود. وليس من قبيل الصدفة أن يختار كتاب السيناريو والمسرح بانتظام، عند بحثهم عمن يجسد الشرير الزري، مراسل صحف الإثارة. فهذا يوفر عليهم الجهد والوقت. إذ لا يضطرون لكتابة

صفحات عديدة تصف شخصية تفتقد الأخلاق، فمجرد إعلان مهنة الشخصية يكفي لكي يفهم النظارة أنها سوف تمارس التملق والخداع. ثم هنالك الكسالى - أولئك الذين يختارون التلقين والسطحية والمعلومات التي تستحيل مناقشتها، بدلا من العمل الدؤوب والاجتهاد والجد والكد والسعي للحصول على المعلومات الصحيحة بقدر المستطاع. ومن المؤكد وجود الكثير من الحقد الخبيث المتعمد والبراعة والحرفية في تاريخ الصحافة.

لكن هناك العديد من الأعمال البطولية، تزيد كثيرا عما تعتقده غالبية المذاهب النقدية والمدارس الصحفية: جون تياس، مراسل "التايمز"، فضح الأعمال الوحشية التي ارتكبها البريطانيون ضد المتظاهرين في مانشستر عام 1819؛ وليام هوارد رسل، وصف حماقات الجيش البريطاني الخرقاء في القرم؛ وليام لينغ، كشف في "شيفلد تلغراف" الفساد والعنف في تلك المدينة (تعرض للتهديد مرارا إلى درجة اضطر فيها للاحتفاظ بمسدس مذخر على مكتبه، كما كان يرافقه شرطي عند عودته إلى المنزل كل ليلة)؛ ايملي كروفورد، خاطرت بحياتها بكل عناد لنقل ما يحدث في كومونة باريس (1871) إلى صحيفة "ديلي نيوز"، ثم فاجأت العالم بالسبق الصحفي حول مؤتمر فرساي لاحقا؛ نيللي بلاي، ادعت أنها تعاني من مرض عقلي لتدخل مصحة للأمراض العقلية وتكتب تحقيقا لصحيفة "نيويورك وورلد"، وصفت فيه الرعب والإرهاب والوحشية هناك، مما أدى إلى تحسين ظروف المرضى داخل المصحات؛ و.تي. ستيد، فضح دعارة الأطفال في "بول مول غازيت"؛ ايدا تاربل، وثقت في مقالاتها لصحيفة "مكلور" ممارسات الفساد والتخويف والتهديد في شركة "ستاندارد اويل" (1902 -1904)، وعبدت الطريق لحل الشركة فيما بعد.

ثم هنالك ايميلي مارشال، التي كسرت عدة حواجز ذكورية لتصبح أول مراسلة في صالة الصحافة في مجلس العموم، وأول مراسلة تعمل في صحيفتين: "ديلي ميل"، "وديلي اكسبرس"؛ وجون ريد، الذي روى ما حدث

خلال الثورة الروسية؛ ورونالد توماس من "نيويورك وورلد"، الذي نزع القناع عن منظمة "كو كلوكس كلان" ليظهر وجهها العنصري العنيف؛ وايليا اهرنبرغ مراسل "رد ستار" الذي كان أول من كشف معسكرات الإبادة النازية؛ ولا ننسى التقارير التي أرسلها جون هيرسي وويلفريد بيركيت من هيروشيما ودحضت الكذبة الرسمية التي تزعم عدم وجود شيء اسمه المرض الإشعاعي؛ والمعارضة الشجاعة التي أبدتها "الاوبزرفر" و"مانشستر غارديان" لغزو السويس عام 1956؛ والمتابعة العنيدة من قبل الصحافة البريطانية للخروقات الأمنية على أعلى المستويات في أوائل ستينات القرن العشرين؛ وفضح سيمور هيرش (الذي كان آنذاك شابا يعمل لحسابه الخاص) لمذبحة ماي لاي المرعبة عام 1968؛ وحملة "صنداي تايمز" لصالح الضحايا الذين فقدوا أطرافهم بسبب عقار التاليدوميد؛ وتحقيق كارل بيرنستاين وبوب ودوارد في قضية "ووترغيت" في صحيفة "واشنطن بوست"، الذي أثبت أن رئيس الولايات المتحدة كاذب وفاسد؛ ورفض روبرت فيسك القبول بخط حلف "الناتو" (أو خط أي مؤسسة رسمية)، عندما أرسل التقارير حول الصراع في كوسوفو إلى صحيفة "الغارديان" عام 1999.

هنالك أيضا أولئك الذين نقرأ أسماءهم بشكل عابر، لكن نادرا ما نتذكرها؛ الذين لم تقابل جهودهم لنقل المعلومات إلى مجتمعاتهم بالعقبات والقيود الرسمية أو الأجوبة المراوغة فقط، بل بالتهديد والوعيد والتخويف أو بأسوأ من ذلك. في كل سنة، يتعرض آلاف المراسلين للاعتقال أو التهديد، ويسجن المئات منهم، ويقتل العشرات. وهذا ما دعته الصحفية البيروفية سونيا غولدنبرغ بـ"الرقابة بواسطة الموت". في عام 1982 قتل تسعة صحفيين في شتى أرجاء العالم. في عام 1994، قتل ما لا يقل عن 103 صحفيين لأنهم بالغوا في الاقتراب من الحقيقة. وبحلول نهاية القرن، شهد كل شهر تهديد أربعين صحفيا، واعتقال عشرين، وسجن تسعين، ومقتل ثلاثة. وكان كل واحد منهم بمثابة إجابة حاسمة ومحددة لأولئك الذين يظنون - داخل وخارج المهنة - أن

الصحافة فرع من فن التسويق الذي ينظم التوافه ويضخم الترهات. فبرغم كل شيء، لن نجد سلطة قمعية تكلف نفسها عناء إعاقة، أو سجن، أو قتل المراسلين من أجل ذلك.

أخيراً، لا ننسى عشرات الآلاف من الصحفيين - المحليين غالبا - الذين لا يرضون بديلا عن اكتشاف النسخة الكاملة لحقيقة ما حدث في مناطقهم ثم إعلانها على الملأ. وهؤلاء لا يطمعون بذهب أو مجد، وليس ثمة سبب محدد يمنعهم من الحصول عليهما. لكنهم كالترياق المضاد، اجتماعيا ومهنيا، لأولئك الذين استبدلوا مصداقيتهم بالمرتب المرتفع أو الحياة السهلة المريحة.

كل هؤلاء المراسلين الأكفاء يشتركون في شيء ما. ولربما يخفونه جيدا تحت قناع الواقعية الصلب الذي يضعه الصحفيون بشكل إجباري، لكن المخلدين، والمضطهدين، والمهمشين منهم، يشتركون جميعا في اعتقاد واحد حول ماهية المهنة، يتمثل قبل كل شيء في التساؤل، ومن خلال التساؤل، يستهدف:

- اكتشاف ونشر المعلومة التي تحل محل الإشاعة والتخمين.
- مقاومة أو مراوغة السيطرة الحكومية.
- تثقيف وتنوير - وبالتالي تمكين - الناخبين.
- تصديع أركان سلطة أولئك الذين يعتمدون على حرمان الجمهور من المعلومات.
- تفحص الخطوات والإجراءات التي تتخذها الحكومات (أو تتقاعس عن اتخاذها)، والممثلون المنتخبون، والخدمات العمومية.
- تفحص الأعمال التجارية، ورجال الأعمال، ومعاملتهم للعمال والعملاء، وجودة منتجاتهم.
- مواساة المبتلين وإقلاق راحة المنعمين، وتوفير منبر للمهمشين الذين لا يسمع صوتهم عادة.

- وضع مرآة أمام المجتمع، تعكس فضائله ورذائله، إضافة إلى فضح زيف أساطيره وخرافاته السائدة.
- التأكد من أن العدالة تأخذ مجراها، والتحقيقات تجري حيثما تفتقد وتغيب.
- تشجيع التبادل الحر للأفكار، خصوصا عبر توفير منصة لأصحاب الفلسفات البديلة لتلك السائدة والمسيطرة.

إن كنت تستطيع قراءة بنود القائمة الآنفة بدون أن تشعر بالتأثر والتحفز، فلربما لا تناسبك مهنة الصحافة.

مواقف

تحقيق الأهداف المدرجة أعلاه، على الدوام، مهمة شاقة. فالفكرة الشائعة بين الغرباء عن الصحافة التي تشير إلى أن ما يحتاجه المراسل - أكثر من أي شيء آخر - هو القدرة على الكتابة الجيدة، لا تشكل سوى نصف مقومات المهنة. لأن المقدرة الأدبية مجرد جزء منها، وفي أغلب الأحيان ليست الجزء الأكبر. كما أن عمل المراسل الجيد ليس مسألة تتعلق باكتساب مجموعة من الخدع والأدوات، يتم اختيار المناسبة منها تبعا للظرف. فما يحتاجه المراسل لتحقيق النجاح هو المواقف الصائبة والشخصية الصادقة.

أهم معدات وأدوات المراسلين الصحفيين يحملونها في رؤوسهم. بعض المواقف فطرية، وبعضها الآخر يمكن اكتسابه بسرعة، لكن معظمها ينبني من خلال سنوات من الخبرة والتجربة - عبر البحث والكتابة، وإعادة البحث وإعادة كتابة مئات ومئات من القصص والتحقيقات والتقارير.

مهنة المراسل الصحفي هي من المهن التي تتعلمها من خلال ارتكاب الأخطاء. في الأسبوع الأول من اشتغالي في الصحافة، مثلا، كنت أعمل في صحيفة صغيرة تصدر في جنوب إنكلترا. ومن خلال توليفة جمعت حظي السعيد وتصميمي العنيد على إحداث تأثير مهم، وجدت قصة جيدة حول

obeikandl.com

تلوث الأنهار. ذهبت لإجراء البحث ثم هرعت عائدا إلى المكتب وأنا أحلم بالأوسمة التي ستنهال علي. لكن محرر الأخبار صاح عندما قرأ قصتي: "ما هذا بحق الجحيم؟ أين الأسماء؟". كانت الإثارة قد تملكتني إلى حد نسيت فيه أن أسأل عن أسماء الأشخاص الذين قابلتهم. صحيح أن القصة الإخبارية قد أتخمت بالشواهد والاقتباسات، لكنها مأخوذة عن "أحد السكان القلقين"، أو "أحد مهندسي المياه"، أو "أحد مفتشي السلامة والأمان".. الخ. ثم قضيت الساعات الأربع والعشرين التالية وأنا أحاول الحصول على أسماء المعنيين، ومقابلتهم مرة أخرى، وتصحيح الخطأ الذي ارتكبته. هيمنت القصة على الصحيفة ذلك الأسبوع. وما زلت أشعر بالامتنان لغلطتي الحمقاء حتى الآن. فقد تعلمت درسين مفيدين في الأسبوع الأول من عملي في المهنة. الأول هو أن الشواهد والاقتباسات لا تساوي الكثير بدون أسماء مرفقة بها، والثاني - والأهم - أن كتابة التقارير والتحقيقات الصحيفة مهمة بالغة الصعوبة. من الواضح أن الحماس والاندفاع لا يكفيان؛ أنت بحاجة أيضا إلى تبني المواقف الصائبة. الملاحظات التالية مهمة في هذا السياق:

إحساس حاد بالخبر

أنت بحاجة لهذا الإحساس - لأسباب ثلاثة. أولا، (بمعنى الإيجاب) معرفة مكونات القصة الإخبارية الجيدة والقدرة على إيجاد البؤرة الجوهرية للخبر من بين ركام التافه والغث. ثانيا، (بمعنى السلب) عدم إضاعة الوقت بمتابعة قصص وتحقيقات لن تؤدي إلى شيء مهم. عليك في أحيان كثيرة أن تسأل نفسك: "ما هي أفضل احتمالات هذه القصة؟ ما هي أقوى نقاطها الجوهرية إذا حصلت على كافة المعلومات التي أحتاجها؟". في بعض الأحيان تبين الإجابة أن القصة لن تكون مهمة. لذلك تجاهلها. ثالثا، إن كنت تفتقد الإحساس بالخبر، أو تملكه دون أن تستخدمه، فسوف تفوتك أشياء كثيرا وتخدع نفسك. خذ على سبيل المثال دونكومب جويل، مراسل "ديلي ميل" في أيامها المبكرة. فقد أرسل لتغطية خبر تدشين السفينة "البيون" في "تيمز ايرون

وركس" في لندن، وعاد إلى المكتب حاملا رواية منمقة رومانسية الأسلوب تؤكد أن المشهد كان" أقرب الأشياء إلى غروب الشمس بألوان الرسام تيرنر التي يمكنك وضعها في مخطوط". وحين كان يسلم التحقيق الصحفي، وصل خبر يقول أن ثلاثين شخصا غرقوا عند إطلاق السفينة. خرج محرر الأخبار عن طوره من شدة الغضب، فقال جويل: "حسنا، رأيت بعض الأشخاص يتخبطون في لجة الماء حين كنت أغادر المكان لكن..".

الهوس بالدقة

كمحرر أخبار، أقدر هذه السمة أكثر من جميع السمات الأخرى في المراسلين: هل أستطيع الاعتماد على عملهم والوثوق بدقتهم؟ أنت كمراسل، سرعان ما ستقدر قيمة سمعتك، واشتهارك بالدقة لا بالمبالغة، في الكلام المطبوع والمنقول، فإن خسرتها فسيصعب عليك استعادتها.

الدقة تعني ثلاثة أشياء. أولا، تسجيل وكتابة ما يخبرك به الناس حرفيا. ثانيا، التأكد من أن قصتك مطابقة لروح وجو الوضع أو الحدث وذلك مهما كانت أجزاؤها دقيقة وصادقة - الأمر الذي يعني إضافة الخلفية والسياق. ثالثا، الحذر من السقوط في فخ العادة الخطرة والشائعة والقول: "إذا حدث هذا، وحدث الأمر الآخر، فلابد أن يكون هذا الأمر الآخر صحيحا". لا ينبغي عليك أن تتمنى بل أن تحول تقريرك إلى حروف مطبوعة. فإن ظهرت أي فجوات في تسلسل الأحداث التي تنقلها، حاول العثور على الحلقة المفقودة بالضبط: لا تظنن أنه إذا وقع الحدث (آ)، ثم حدث شيء آخر، تبعه (ج)، فإن الحلقة المفقودة لا بد أن تكون (ب). فلربما لا تكون هي.

لا تضع افتراضات مسبقة أبدا

هذا ينطبق على الافتراضات كافة - بغض النظر هل اعتمدت على المنطق، أم التطابق، أم الحقيقة، أم البواعث. المشكلة الكبرى مع الافتراضات أن معظمها مصيب كما يتبين لاحقا: وهذا ما يجعلها خطيرة ومغرية. حاول

البقاء في الجانب المأمون، انقل ما تعرفه فقط لا ما تظن أنك تعرفه. وبهذه الطريقة سوف تتجنب الخطأ والزلل وعدم الدقة، والكذب والتضليل - أو الطرد من العمل.

هنالك حادثة شهيرة لمصور فوتوغرافي (يعمل لحسابه الخاص) قدم لإحدى الصحف البريطانية الجماهيرية صورة الأمير تشارلز وهو يطوق بذراعيه سيدة (ليست زوجته) في وقت عرف الجميع بأن زواجه لم يكن سعيدا. نشرت الصحيفة الصورة تحت عنوان يوحي بوجود علاقة رومانسية، لأن المحررين افترضوا مسبقا أن هذا ما يحدث. لكنهم كانوا مخطئين. فما لم يعرفوه أن الصورة التقطت خلال جنازة ابن المرأة الذي توفي بسبب اللوكيميا ولما يبلغ الرابعة من العمر. وكان الأمير يقوم بواجب يؤديه أي منا في وضع مشابه - كان يواسي الأم الثكلى.

لا تخف أبدا من أن تبدو بصورة المغفل

مهما بلغت درجة جهلك حسب ظنك، اسأل إن كنت لا تعرف؛ فإن لم تفهم اطلب تفسيرا واضحا. لا تقلق من أن يهزأ منك أحدهم. المراسل الأحمق فعلا هو ذاك الذي يدعي المعرفة والعلم، ويومئ برأسه علامة على الفهم خلال المقابلة بينما هو لا يفهم سوى جزء من الحديث، ثم يحاول كتابة القصة - ليجد أنه لا يستطيع. المكان الذي تظهر فيه جهلك هو حين تسأل الناس، لا على الورق حين تجلس لاحقا لكتابة القصة.

شككْ في المصادر

الموقف العام الجوهري بالنسبة للمراسلين، بل لجميع الصحفيين، هو الاشتباه والتشكيك بالمصادر كافة. لمَ يبلغني هذا الشخص بهذه المعلومة؟ ما هو دافعه؟ هل يحتل موقعا يؤهله فعلا لمعرفة ما يزعم أنه يعرفه؟ الفصل السادس من الكتاب سوف يتناول هذه المسألة المعقدة.

حاول التخلي عن أحكامك المتحيزة

لا يمكنك أن تتخلى عن جميع معتقداتك الراسخة، لكن يتوجب عليك ألا تسمح لها عامدا متعمدا أن تؤثر في عملك. ينبغي على المراسلين الالتزام بالدقة عند نقل ما حدث، وليس رواية كل شيء من منظور أحكامهم المسبقة المتحيزة، مهما كانت متنورة وذكية ومثقفة حسب ظنهم.

ينطبق ذلك على الأحكام والآراء المسبقة المبتكرة حديثا إضافة إلى تلك القديمة. لا تدع الرأي الذي تشكل لديك في وقت مبكر من بحثك المبتسر يلون حكمك على القصة. فمن أكبر خطايا المراسلين، لا سيما أولئك الذين يطلب منهم كتابة رواية تفصيلية تصف الجو المخيم على الحدث، أنهم يكتبون المقدمة داخل رؤوسهم وهم في الطريق إلى إجراء المقابلة مع الشخصية المعنية. قد تكون المقدمة ذكية، وممتعة، ورشيقة الأسلوب، لكن في هذه الحالة سوف تخبر القراء معلومات عنهم لا عن الموضوع.

اعلمْ أنك جزء من عملية متسلسلة

يخضع المراسلون لما يريده المحررون. حاول استخدام شتى الطرق للجدال معهم، والصراخ في وجوههم، وإقناعهم بالحسنى، لكن عليك في النهاية القبول بقرارهم - أو ابحث عن عمل في مكان آخر. تلك هي حرفية المهنة. كذلك هو الانضباط والالتزام بخط صحيفتك ومواعيدها. العديد من المراسلين يظنون أن التأخر عن الموعد المحدد والمبالغة في التطويل من علامات الموهبة الأدبية. لكنهم مخطئون. فكل ذلك دليل على الغَرارة وافتقاد الخبرة والحرفية. كذلك هو حال المراسل الذي لا يتصل بصحيفته بانتظام، حين يخرج لإجراء تحقيق أو كتابة تقرير. لكن بمقدورك في أحيان كثيرة استخدام احتياجات الصحيفة لمصلحتك، وإعطاء الأولوية لتحقيقاتك وتقاريرك من خلال الحساب الدقيق لدورة إنتاج صحيفتك، ومتى تحتاج إليها، وهل تريدها موضحة بالصور ومدعمة بالرسوم البيانية والملاحظات الإضافية.. قبل تسليمها.

افهم وقدر مشاعر القراء

لولا القراء، لبقيت قصتك حبيسة الغرف المظلمة لا تجد من يسمعها سواك. لسوف يقرؤونها إن أخذتهم بعين الاعتبار - حين تكتب، وخصوصا حين تبحث وتحقق. ما الذي يريد القراء معرفته؟ ما الذي يحتاجون إلى تفسيره؟ وما الذي يثير اهتمامهم بالقصة؟ حاول العثور على الموضوعات والروايات المهمة، وبين كيف تؤثر الأحداث في حياة القراء، أو حياة الآخرين؛ استخدم الأمثلة والنماذج ذات الصلة بتجربتهم، وفوق كل شيء حاول رواية القصة بتعابير الناس الحقيقيين.

إرادة الفوز

سوف يدرك المراسل الجديد - عاجلا أو آجلا - حقيقة أن العالم ليس مصمما لكي تؤدي الصحف مهماتها بسهولة ويسر. فالأحداث تجري في أماكن خطرة وأزمنة غير مناسبة، حيث لا تتوفر - أو لا تعمل - الهواتف دوما؛ وإذا ذهبت للعمل خارج المدينة أو البلد فقد تستنفد نقودك، وطعامك، وشرابك، ووقتك، وطاقتك. أنت بحاجة لرغبة قوية وإرادة صلبة لمغالبة الظروف وتجاوز العقبات التي تعترض سبيلك، لذلك ركز على موضوع القصة وأرسلها إلى صحيفتك بأسرع ما يمكن. لكي تكون مثل ايد كودي مراسل "واشنطن بوست". في كتابه الممتاز "من سرق الخبر؟"، يروي مورت روزنبلوم قصة كودي حين كان في باريس في إحدى ليالي شهر كانون الأول/ ديسمبر 1988 ووصله خبر تحطم طائرة "بان أمريكان" فوق لوكربي، البلدة الصغيرة في اسكتلندا. كانت الساعة 20:8 مساء، وقد غادرت آخر الطائرات إلى بريطانيا. استأجر كودي طائرة وأقنع المحرر المسؤول في الولايات المتحدة بتغطية التكاليف، وبعد بضع ساعات كان المراسل في غلاسكو. تقع لوكربي على بعد ستين ميلا إلى الجنوب، وبحلول ذلك الوقت قطعت الشرطة كل الطرق المؤدية إليها. وبما يشبه المعجزة، وجد كودي سائق سيارة أجرة من أهالي البلدة، بواسطة معارفه واتصالاته المحلية. وانطلق إلى موقع الحدث. بل كان للسائق

صديق يملك حانة، تمكن كودي من الاتصال بواشنطن منها لإرسال قصته الإخبارية.

كان تحطم الطائرة، الذي أودى بحياة جميع ركابها البالغ عددهم 259، إضافة إلى أحد عشر آخرين قتلوا على الأرض، واحدا من أعظم الأحداث في الثمانينات. ولم يتمكن كودي من تحقيق السبق الصحفي في تغطية الحدث إلا لأنه امتلك إرادة الفوز. صحيح أنه عمل مع صحيفة كانت على استعداد لدفع مبلغ ستة آلاف دولار لتغطية تكاليف الرحلة الإضافية بالطائرة، لكن في معظم المناسبات لن تكلف الرغبة بالحصول على القصة مثل هذا المبلغ، ولسوف يجني منها المراسل مكاسب وجوائز عظيمة غالبا.

استشعر الحاجة الملحة

تريد الصحف من مراسليها بذل أقصى ما يستطيعون لإرسال أكمل وأسرع رواية للحدث. المنافسة الصحية - وأحيانا غير الصحية - للفوز بقصب السبق جزء من واقع - ومتعة - المهنة. كما أنها تخدم القراء جيدا، طالما لا تتجاوز القواعد والحدود.

التفوق على الوكالة المنافسة - مثلا - كان يحتل قمة أولويات مصوري وكالتي "اسوشييتد برس" و"يونايتد برس انترناشيونال"، الذين كلفوا بمهمة التقاط صور الدالاي لاما حين هرب من التيبت عام 1959. فكلتاهما استأجرت طائرة، ورتبت تجهيز الدراجات النارية للمصورين بحيث يلتقطون الصور من حدود الصين لإرسالها عبر أقرب جهاز بث في الهند. وحين ظهر الدالاي لاما من طائرته، انقض المصورون عليه، والتقطوا صورهم وهرعوا عائدين إلى طائرتهم التي كانت محركاتها دائرة. وبعد سباق خطر وسريع في الجو وعلى الأرض، كسبت وكالة "يونايتد برس انترناشيونال".

أصيب مصور "اسوشييتد برس" بصدمة مدمرة. عاد إلى غرفته في الفندق وجلس هناك، يفكر بالاتهامات المضادة، وعار الهزيمة. ثم تلقى برقية

من مكتبه: "صورة المنافسين للدالاي لاما تظهره بشعر طويل أشعث. أما في صورتك فهو أصلع. يرجى توضيح الأمر". ورد المصور قائلا: "الصورة التي التقطتها هي الحقيقية". ففي حمأة مسعاه للفوز بالمنافسة، التقط مصور "يونايتد برس انترناشيونال" صورة المترجم بدلا من الدالاي لاما!

لكن للمنافسة المقبولة حدودا. ومن المؤكد أن الصحفي السابق في "نيويورك بوست"، ستيف دنليفي قد بلغها - بل تجاوزها بمراحل. فحين كان شابا يعمل كمراسل، كان والده يعمل في صحيفة منافسة. وكلف الاثنان بمهمة واحدة، لكنه وصل أولا إلى موقع الحدث بعد أن ثقب إطار سيارة والده!

الفردانية

تستخدم حكومات مختلف بلدان العالم مزيدا من الأساليب المعقدة والمتطورة لإدارة أخبارها، والتحكم الصارم بالمعلومات التي توزعها، والمتلقين لها. في بعض الأماكن، تشمل إتاحة هذه القنوات انضمام المراسلين إلى نوع من "النادي"، الذي يحدد قواعد وقوانين السلوك "المسؤول"، ويهدد بالإقصاء وحجب المعلومات الرسمية عن كل من يخرج عن الخط المرسوم. هذه الحالة غير صحية، نظرا لأن من عادة المراسلين أحيانا التعاون مع بعضهم بعضا، والمشاركة في الاقتباسات والشواهد وأرقام الهواتف. لكن ينبغي على المراسلين الأكفاء أن يكونوا على أتم الاستعداد دوما للخروج على الإطار المحدد عند الضرورة، والذهاب إلى حيث لم يذهب أحد من قبل، وتحمل المسؤولية والانتقاد حين لا تسير الأمور كما يريدون. وأن يكونوا على استعداد للتخلي عن الطعام المهضوم مسبقا والمقدم بالملعقة الرسمية، لأنهم يعرفون بأن هنالك نكهة ألذ إذا بحثوا عن "الوجبة" بأنفسهم.

الشخصية

يمكن لأي إنسان ذكي، مع قدرة كافية على التطبيق، أن يتعلم كيف يصبح مراسلا مؤهلا. لكن إن أردت الارتفاع فوق هذا المستوى، لتغدو مراسلا جيدا

أو عظيما، يجب أن تتمتع بالموهبة الحقيقية والميل المتأصل للبحث، أو الكتابة، أو لكليهما معا. وعليك أن تمتلك النمط المناسب من الشخصية: فهذه السمة هي التي تميز المراسل المبرز من العادي.

أدين بفضل معظم ما أعرفه عن شخصية المراسل الحقيقي إلى رجل واحد. كان يصغرني بثمانية أعوام، ولم أعرفه إلا لعدد قليل من السنين قبل أن يختطفه الموت بسبب اللوكيميا ولما يبلغ الثانية والثلاثين من عمره، لكنني أعتبره أقرب نموذج قابلته للمراسل الكامل والمثالي. اسمه جون ميريت، وشغل منصب كبير مراسلي صحيفة "الاوبزرفر" اللندنية. تمتع هذا الشاب النحيل الحاد القسمات بكل الفضائل، ومعظم المثالب المطلوبة في المراسل العظيم. أول ما أدهشني في جون، حتى قبل أن أدرك عظمته كمراسل، حب الناس له. كان منفتحا، ودودا، وهزليا، لكن السبب الذي دفع الناس لمحبته هو اهتمامه بهم وإظهار ذلك عبر طبيعته الانبساطية. هذا لا يعني أنه طاف العالم وهو يرسم على وجهه تكشيرة جامدة، أو حاول عقد صداقات زائفة، أو رحب بالناس وكأنه مضيف في برنامج مسابقات تلفزيوني. لكن قدرته على تمتين أواصر الصداقات مع الغرباء شكلت عونا حقيقيا ومستمرا له. كان بمقدوره أن يشرب، ويدخن، ويشتم مع أصحاب الشخصيات الفظة والجلفة والودودة والدمثة على حد سواء، وحتى مع المطارنة يستطيع الجلوس وتناول الشاي والتحدث حول اللاهوت. ومهما كان رأيه بالشخص، يستطيع محاورته والشعور بالارتياح تجاهه ودفعه لمبادلته الإحساس ذاته.

تقنّع هذه الدماثة - إلى أن يرغب بكشفها - السمة النمطية لجميع المراسلين الأكفاء: التصميم. فقد صمم جون على العثور على القصص الإخبارية تبعا للمعيار الصحيح، وعلى قهر جميع العقبات، وتجاوز المراوغة والتأخير، وكل ما من شأنه أن يعرقل استكمال مقالته. كان تصميمه العنيد واضحا ومرئيا بشكل خاص حين يثبت أن معلومة ما يصعب الحصول عليها.

وفي هذه الحالة كان مستعدا للجلوس إلى مكتبه ساعات طويلة، يجري اتصالا إثر آخر، مجربا كل المصادر المستبعدة إلى أن يعثر على ضالته.

ما ساعده كثيرا أن هذا التصميم ترافق مع قدر كبير من الميزة العظيمة الأخرى الضرورية لمهنة المراسل الصحفي: الجرأة. فقد تمتع بالجسارة اللازمة للاتصال بكبار المسؤولين في منازلهم، ليطلب منهم نسخة من ذاك التقرير أو يسألهم معروفا حول هذه المعلومة مع أنه لم يلتق بهم من قبل. ولم تكن تسمع منه أبدا شكوى المراسل الضعيف حين يئن منتحبا: "أوه، لا فائدة من طلب ذلك، فلن يصغوا إلي". كان دقيقا في اختيار توقيت مقاربته، لكنه لم يكن يتردد في إجراء المكالمة المطلوبة. اعتاد أن يقول وهو يرفع سماعة الهاتف ليحاول مرة أخرى: "أسوأ احتمال هو أن يقول أحدهم: اغرب عن وجهي"، وكثيرا ما كانت الطريقة مجدية. لم يكن جون يخاف من الطلب والسؤال أبدا.

كما لم يكن يخشى من المسؤولين الكبار في السلطة أو الحكومة (أو تهديداتهم على الأقل)، ولم يكن ذلك نتيجة الغطرسة (وكان لديه منها الكثير آنذاك)، بل العاطفة الجياشة والإحساس بغياب العدالة، وهي مشاعر جلبها معه إلى العمل. لم يكن جون قديسا (وكل من خالفه الرأي في المكتب سرعان ما اختبر كلماته الجارحة)، لكنه أبدى اهتماما عميقا بضحايا المجتمع والحكومات. اعتبر ذلك جزءا رئيسا من عمله، وكان صوت من لا صوت له.

بالنسبة له، لم تكن النزاهة تعني الحيادية واللامبالاة؛ ولا التمنيع ضد الاهتمام بالأخطاء في المجتمع. لقد آمن بضرورة أن يلهم الغضب والإحساس بالظلم الصحفيين دائما، وأن يسترشدوا بهديهما في أحكامهم حول الموضوعات التي سيتعاملون معها، وفي تمكين الاستقصاءات التي يجرونها حتى النهاية. كان بمقدور جون كتابة قصص إخبارية خفيفة، لكنه تميز في تحقيقاته وقصصه الصحفية حول ضحايا التعذيب في شتى أرجاء العالم، وحول المشردين واستغلالهم من قبل الملاك الجشعين، والظروف المرعبة التي

يعيش فيها المتخلفون عقليا في بلدان مثل اليونان. لكنه ظل دائما مهنيا محترفا - ولم ينس أبدا الفارق المميز بين القصة والموعظة.

تمتع أيضا - إلى درجة طاغية أحيانا - بالحماسة. فمن السهل أن يثير الحدث المهم أي مراسل، لكن اختبار معدنه يتجلى في الشهية لاستخلاص المهم من قصة لا تبدو أنها واعدة. كان جون يملك هذا الحماس، وعلى أتم الاستعداد للقدوم إلى مكتبه مبكرا ومغادرته متأخرا إذا دعت الضرورة. ولم يقتصر ذلك على المكتب فقط. فالصحفيون الذين يأتون في أخر لحظة لحضور اجتماع أو مؤتمر صحفي أو أي مناسبة يكلفون بتغطيتها، ثم يغادرون في أول فرصة، ربما يظنون أن هذه هي طريقة المحنكين المتمرسين، لكن الأمر ليس كذلك. فكثيرا ما يحصل المراسل الجيد على ما يريد عند التواجد في وقت مبكر من الاجتماع، أو التريث بعد انتهائه والتحدث مع المسؤولين.

ثم هنالك فضوله الملح. كان يطرح الأسئلة باستمرار، ويبدى اهتمامه بأي شيء وكل شيء. أراد استكشاف أسباب سيرورة الأمور على هذا النحو، وماهيتها، ولماذا تعمل، أو لا تعمل. وحيثما ذهب، لم يتوقف عن طرح الأسئلة. ولربما وجد قصة مهمة وسط ميدان خاو عقيم.

المراسل العظيم

إذا أردنا اختيار تقرير صحفي يمثل في جودته وتأثيره أفضل ما في الصحافة، فلا مانع من العودة قرنا وربع قرن من الزمان، إلى بلدان وسط أوروبا التي مزقتها المزاعم والدعاوى القومية وأعمال العنف المنهجية المنظمة. وأي تشابه فيما يلي مع الأحداث المعاصرة في ذلك الجزء من العالم ليس مصادفة بالتأكيد. بدأت القصة بمزاعم تشير إلى ارتكاب أعمال عنف وحشية، ورافقتها أكاذيب أطلقتها - بالتزامن - عدة حكومات، ورقابة على الأخبار، وإمبراطورية تحتضر. تورطت في القضية تركيا، وروسيا، وبريطانيا، وبلغاريا الوليدة، واستمرت الأزمة مع انتشار أنباء عن أعمال بطولية، ثم اندلاع

حرب، وانتهت بإنشاء عدة دول جديدة، وإعادة رسم خارطة أوروبا. أما الشخص الذي جمع كل هذه الأجزاء التي لا تجمع فكان مراسلا أمريكيا من أصول ايرلندية يعمل في سان بطرسبرغ، اسمه جانيواريوس الويسيوس مكفاهان.

حتى بمعايير المغامرة السائدة في أيامه، كان مكفاهان باحثا من الطراز الأول عن قصص الإثارة الصحفية. ففي عصر كان المتابع السريع لأحداث العالم يستخدم الحصان والسفينة البخارية، أرسل مكفاهان - بخلال خمس سنين - تقاريره من كوميونة باريس (حيث سجن)، ومن بلاط القيصر في سان بطرسبرغ، ومن وسط آسيا، وكوبا، والقطب الشمالي، والقوقاز، والبيرينيه. اشتهر مكفاهان بنزاهته وبصره الثاقب، ولم يكن يتجنب التحدي. في عام 1875، أبحر في المياه القطبية المتجمدة بزورق خشبي، وتحدى قبل سنتين حظرا روسيا على المراسلين الأجانب، ليقوم برحلة مشهودة في سهوب آسيا الوسطى. كان هدفه اللحاق بالحملة العسكرية الروسية المتجهة إلى تركستان. طارده فرسان القوزاق مسافة ألف ميل تقريبا، لكن بعد تسعة وعشرين يوما، وصل إلى المعسكر بصحبة مرافقين اثنين، بعد أن اضطر أحيانا لأن يخوض حتى الركبتين في الرمال، كما ضل طريقه عدة مرات. واحتلت سمعته المدوية، وموثوقيته، وشجاعته عناوين الأخبار في كل مكان.

بحلول صيف عام 1876، كان هذا المراسل الشاب (32 سنة) في لندن مع زوجته المولودة في روسيا (باربرا) وابنه الصغير. وخطط لتأليف كتابه الثالث وأخذ قسط من الراحة. لكن استرخاءه لم يدم طويلا. فقد اتصلت به "ديلي نيوز" وهي صحيفة لندنية ليبرالية بارزة، وكلفته بمهمة عاجلة.

كانت الصحيفة في مأزق. فقد نشرت قبل يوم أو يومين، في 6/23، تقريرا لمراسلها في الأستانة، السير ادوين بيرز، اعتمد على إشاعات تزعم ارتكاب الجيش التركي أعمال عنف وحشية في جنوب بلغاريا ضد السكان المسيحيين. غضب مسؤولو وزارة الخارجية البريطانية غضبا شديدا، وكذلك

رئيس الوزراء المؤيد للأتراك، بنجامين ديزرائيلي، الذي وصف التقارير بأنها "ثرثرة المقاهي"، وأنكرها تماما، واتهم الصحيفة علنا بنشر تقارير كاذبة، إضافة إلى التهمة المعيارية القديمة التي يوجهها السياسيون لوسائل الإعلام: "اللامسؤولية". الترك من جانبهم أنكروا التهمة كلية بعد أن فرضوا رقابة شاملة على أخبار الأحداث.

الآن، توجب على "ديلي نيوز" إثبات صحة اتهاماتها، أو التراجع وتحمل الإذلال. لذلك أرسلت في طلب مكغاهان وكلفته بمهمة اكتشاف الحقيقة في بلغاريا. وبحلول أوائل تموز/يوليو، كان في الطريق إلى هناك؛ وفي أواسط الشهر وصل موقع الحدث، ليحقق ويقابل مئات الناجين. وما اكتشفه تجاوز حتى تخيلاته الجامحة: مذبحة جماعية وحشية راح ضحيتها اثنا عشر ألفا من الرجال والنساء والأطفال البلغار.

في أولى رسائله الإخبارية التي نشرت في "ديلي نيوز" (1876/7/8)، كتب يقول: "أظن أنني أتيت إلى هنا وأنا في حالة ذهنية تتسم بالصفاء والنزاهة.. أخشى أنني لم أعد نزيها ومتجردا، ومن المؤكد أنني تخليت عن الهدوء والاعتدال.." . أما أهم وأبلغ ما رواه تعبيرا فأتى من قرية باتاك. وبالرغم من ملاحظاته حول النزاهة والتجرد، إلا أن روايته لما حدث تجسد نموذجا يحتذى للتحقيق الصحفي المعتمد على الحقائق، لا العواطف، الذي يعتبر أكثر أشكال الصحافة فاعلية وتأثيرا.

كانت حقول القمح والجاودار الصغيرة متناثرة على التلال، وقد اكتست السنابل الناضجة بلون الذهب. وبالرغم من أن المحصول قد نضج وفات أوان حصاده.. إلا أننا لم نجد أثرا لأي مزارعين يحاولون إنقاذه. كانت الحقول مهجورة، مثلها مثل الوادي الصغير، وتعفن المحصول في التربة.

.. في نهاية المطاف، وصلنا إلى نجد صغير على سفح التل.. توجهنا نحوه بقصد عبوره، لكن توقفنا فجأة وقد تملكنا الرعب، فقد شاهدنا أمامنا مباشرة، قرب حوافر خيلنا، منظرا تقشعر له الأبدان. كومة من

الجماجم المختلطة مع عظام من جميع أجزاء الجسم البشري، هياكل عظمية، وملابس متعفنة، وشعرا آدميا، وأوصالا مقطعة مكومة هناك، والرائحة النتنة تزكم الأنوف، بينما نبت العشب النضر حولها.

.. في وسط الكومة أمكنني تمييز هيكل عظمي ضئيل ما زال مرتديا قميصا، في حين لف الجمجمة وشاح ملون، وغطى الكاحلين جوربان مزركشان من النوع الذي ترتديه الفتيات البلغاريات.

.. على الطرف الآخر من الطريق رقد هيكلان عظميان لطفلين وقد اخترق الجمجمتين الصغيرتين سيف مريع.. وحين اقتربنا من وسط البلدة، زادت أكوام العظام، والجماجم، والهياكل العظمية. لم نشاهد منزلا لم نجد أمام خرائبه بقايا بشرية، بينما امتلأت الطرقات بها.. الكنيسة الصغيرة محاطة بسور حجري منخفض يطوق فناء لا يزيد عرضه عن خمسين ياردة وطوله عن خمس وسبعين. لم نلحظ في البداية ما يثير.. لكن عند تفحصه اكتشفنا أن ما بدا كتلة من الحجارة والنفايات كان في الحقيقة كومة هائلة من الأجساد البشرية المغطاة بطبقة رقيقة من الحجارة.

.. قيل لنا إن ثلاثة آلاف شخص يرقدون هنا في فناء الكنيسة فقط.. هنالك أيضا رؤوس صغيرة سحقت بحجارة ثقيلة؛ وأقدام لا يزيد طولها عن الإصبع احترق جلدها بفعل حرارة لاهبة قبل أن يتحلل؛ وأذرع ممدودة لأطفال رضع كأنما تستجير؛ وأطفال قضوا بعد أن أذهلهم لمعان السيوف بأيدي الرجال القساة المتوحشين المخضبة بالدماء؛ وآخرون ماتوا رعبا وذعرا؛ وفتيات ذبحن وهن ينتحبن ويتوسلن ويطلبن الرحمة؛ وأمهات قتلن وهن يحاولن حماية أطفالهن بأجسادهن الذاوية.. كلهم يرقدون هناك معا، في كتلة مريعة متفسخة.

الصمت يسود المكان الآن. لا دمع ولا بكاء، لا انتحاب ولا زعيق، لا صراخ من الرعب، ولا توسل للرحمة. المحاصيل تفسد وتتعفن هناك في الحقول، وأجساد الحاصدين تتفسخ وتبلى هنا في فناء الكنيسة.

تقارير مكغاهان (التي أعيد نشرها في مختلف أرجاء العالم، ثم طبعت في كتيب بلغات عديدة) فجرت على الفور تفاعلات متسلسلة أصدرت دويا هائلا. وفي خضم مشاعر السخط والنقمة التي عمت العالم، اضطرت الحكومة البريطانية للاعتراف بالحقيقة، ومارست الضغط من أجل التدخل العسكري، وفي ربيع عام 1877 شنت روسيا حربا على تركيا.

وصل ثمانون مراسلا لتغطية أخبار الحرب من الجانب الروسي، لكن الحملة كانت صعبة إلى درجة أنه لم يتبق من المراسلين الأصليين في الميدان عند نهايتها قبل مرور سنة واحدة، سوى أربعة فقط. وكان مكغاهان بالطبع واحدا منهم. ذهب إلى الجبهة وقدمه في الجبس بعد أن أصيب نتيجة سقوطه. لكنه تجاهل ذلك، إضافة إلى حادثين آخرين نتجت عنهما إصابة خطيرة، وتابع إرسال تقاريره، ومراقبة القتال من فوق عربة مدفع. بعد ستة أشهر (عقدت خلالها معاهدتان)، ظهرت إلى الوجود دول بلغاريا، وصربيا، والجبل الأسود، ورومانيا، كما توسعت حدود روسيا، واحتلت بريطانيا قبرص.

لكن مكغاهان توفي قبل أن يروي كل ذلك. فبعد نهاية الحرب ببضعة أسابيع ذهب إلى الآستانة لزيارة صديقه، فرانسيس غرين، المريض بالتيفوئيد. نجا غرين، وأصيب مكغاهان بالمرض، وتوفي بسببه في 1877/6/9، عن عمر ناهز الرابعة والثلاثين. دفنه البلغار، الذين أطلقوا عليه لقب "المحرر"، في بيرا، وأقيمت القداديس على روحه - كما قيل - في سان بطرسبرغ، وعم الحزن على وفاته لندن وباريس وأمريكا. وأقيم له تمثال في صوفيا، وظلت مراسم تخليد ذكراه تقام لعدة سنين (عبر قداس سنوي لراحة نفسه) في تيرنوفا.

بعد خمس سنوات نقلت سفينة حربية أمريكية جثمانه إلى نيويورك، حيث سجي في مبنى البلدية، ثم نقل إلى مثواه الأخير في نيوليكسنغتون (بولاية اوهايو). أما زوجته، التي عملت مراسلة (روسية) لصحيفة "نيويورك هيرالد"، فقد عبرت المحيط مع جثمان زوجها، وأصبحت مراسلة (أمريكية) لصحيفة

تصدر في موسكو ("روسكايا فيدموستي"). وفي وقت لاحق من تلك السنة، أكد تحقيق رسمي (اعتمد النزاهة الهادئة والتجرد وإدراك الحدث بعد وقوعه) صدقية كل ما كتبه مكغاهان من ميادين القتل والفوضى في بلغاريا. فالصحافة العالمية الشاملة ليست مفهوما جديدا.

"كلما وجدت المئات والآلاف من الحكماء يحاولون الخروج من مكان، وعصبة صغيرة من المجانين تحاول دخوله، تعرف أن العصبة مكونة من المراسلين الصحفيين".

هـ. ار. نيكربوكر.

حدود الصحافة وقيودها

"الصحف يملكها أشخاص وشركات، لكن حرية الصحافة يملكها الناس".

كاتب مجهول

ينبغي على كل صحيفة يومية أن تضيف إلى كل عدد بيانا تتصل فيه من المسؤولية. ويمكن أن يتخذ الصيغة التالية:

هذه الصحيفة، ومئات آلاف الكلمات المتضمنة فيها، أصدرتها بخلال خمس عشرة ساعة مجموعة من البشر الخطائين، الذين عملوا في مكاتب مزدحمة وهم يحاولون اكتشاف ما حدث في العالم، من أشخاص يحجمون أحيانا عن إبلاغنا بالمعلومات، وأحيانا أخرى يوصدون الأبواب في وجوهنا.

هنالك حدود للعملية الصحيفة. الافتقار إلى الوقت الكافي، وعدم توفر المعلومات، يمثلان مشكلة متوطنة. إضافة إلى الأخطاء التي يرتكبها الصحفيون عندما يتعرضون لضغوط العمل. ثمة حدود أيضا تقيد الصحافة الجيدة يوجدها الصحفيون أنفسهم وأولئك الذين يسيطرون على الصحف أو يملكونها. ومن أكبر أساطير المهنة أن تغطية الأحداث تصاغ تبعا لأسلوب الصحيفة وقيمة الخبر. هل الأمور على هذا القدر من البساطة؟ في الحقيقة،

obeikandl.com

تتشكل جودة وطبيعة حرفية الصحيفة المهنية أيضا بواسطة أولويات أصحابها، والثقافة الصحفية السائدة، وقيم القراء المدركة. وكثيرا ما يحتدم الصراع بين هذه العناصر.

أولويات أصحاب الصحف

قد يتملق أصحاب الصحف مفاهيم الحقيقة، والشفافية، والفضيلة، لكنهم على وجه العموم يعتبرون الصحافة عملا تجاريا يدر المال أو يبث الدعاية (أو كلا الأمرين معا). أما طريقة أولئك المتحكمين بإنفاق الصحف لاستخدامها من أجل الدعاية فقد ثبتت بالأدلة بحيث لا تحتاج إلى تكرار ذكرها هنا بكل تفاصيلها المريعة. ويعتبر ترويج آرائهم، وإقصاء الآراء المعارضة، والتغطية المحرفة لتناسب وجهة نظر معينة أو مصالح تجارية خاصة، والانتقام الشخصي، من الموضوعات الرئيسة في تاريخ الصحافة.

هنالك مثال واحد يكفي لإثبات ما قلناه: وليام راندولف هيرست(*)، قطب الصحافة الأمريكية، تصرف طيلة حياته وكأنه لم يتعرف على الأمانة والاستقامة بشكل كاف. فهو الذي عرض مالا على الأستوديو الذي أنتج فيلما سينمائيا مستمدا من قصة حياته (بعنوان "المواطن كين")، لإتلاف الأصل وجميع النسخ قبل التوزيع. وحين فشل في مسعاه، دفع كاتبة عمود الفضائح، لويلا بارسونز، إلى الاتصال بالمسؤولين عن الأستوديو والموزعين، وتهديدهم بفضح تفاصيل حياتهم الشخصية. أكدت لويلا: "يقول السيد هيرست إذا أردتم فضح الحياة الخاصة، فسيعاملكم بالمثل".

لا توجد بينة توضح موقف هيرست تجاه الصحافة، ومواقف العديد من أصحاب الصحف عبر السنين، مثل تلك البرقيات المتبادلة عام 1898. كان

(*) (1863-1951): ناشر أمريكي شهير بنى أعظم إمبراطورية صحفية في العالم، ضمت 28 صحيفة كبرى. (م)

هيرست متلهفا - لأسباب شخصية وسياسية وأخرى تتعلق بالتوزيع - على اندلاع حرب بين أمريكا وإسبانيا حول كوبا. وعملت صحيفته الرئيسة، "نيويورك جورنال"، على نشر قصص مزورة وشوفينية، تحت عناوين مثيرة وفظيعة ومحرفة ("إطعام الأسرى لأسماك القرش"، و"أسوأ إهانة للولايات المتحدة في تاريخها"..). كما بعث مراسليه في كل أنواع المهمات والمغامرات الطائشة للعثور على دليل يثبت "الأعمال الوحشية" التي ارتكبها الأسبان. الذين تمتعوا بالأمانة والاستقامة من هؤلاء لم يرسلوا شيئا (وتأثرت حياتهم المهنية)، في حين استخدم آخرون مخيلتهم. كان من الفئة الأولى رسام يدعى فريدريك ريمنغتون. فحين وجد كل شيء هادئا ولا أثر لسفك الدماء، أرسل برقية إلى هيرست، قال فيها: "لن تندلع أي حرب. أرغب في العودة". لكن هيرست رد عليه بالقول: "أرجو أن تبقى. زودني بالصور، أزودك بالحرب". وفعل ذلك، عبر نشر سلسلة من القصص المحرفة والملفقة.

(كثيرا ما كانت غرابة الأطوار أيضا معلما بارزا لصاحب الجريدة. الكولونيل روبرت مكورماك، صاحب "شيكاغو تريبيون"، أمر مراسله في باريس، وليام شيرر، بالذهاب إلى الريف الفرنسي لمحاولة العثور على نظارة تركها في هُرِي قبل تسع سنين. لكن البطل اللامع في هذا السياق كان جيمس غورون بينيت [الابن]. إذ لم يكتف بالإصرار على أن تطبع صحيفته، "انترناشيونال هيرالد تريبيون"، تقرير حالة الطقس ذاته مدة أربع وعشرين سنة فقط، بل دخل ذات مرة مكاتبها وطرد كل الموظفين الذين يقفون على جانب الغرفة الأيمن، إضافة إلى ناقد موسيقي بسبب شعره الطويل، كما احتفل برأس السنة الجديدة [1877] في منزل ذوي خطيبته حيث بال في الموقد ثم بارز شقيقها).

تحولت ملكية الصحف هذه الأيام إلى الشركات والمؤسسات، وانحصرت متطلبات دعايتها على الأرجح ضمن نطاق دعم وتأييد أحزاب سياسية

معروفة، والتودد إلى السياسيين القادرين على محاباتها (أو انتقاد أولئك لا يستطيعون ذلك)، ونشر القصص التي تدعم وتساند مصالحها التجارية. وكقاعدة عامة، تعتبر الشركات المالكة للصحف أقل اهتماما بالدعاية مقارنة بالمالكين الأفراد، وبعضها لا يظهر سوى اهتمام بسيط بافتتاحيتها إلا إذا أدت إلى تنفير المعلنين. وما تركز عليه كثيرا هو مضاعفة هوامش أرباحها إلى أقصى حد، وبشكل ملح إذا جرى تمويل ديونها من قبل الأجانب. على ذلك خلال العقدين الأخيرين من القرن العشرين تركيزا على تقليص النفقات، وتخفيضا حادا - خصوصا في حالات الاحتكار - في كوادر العاملين في التحرير. وتجربة إحدى الأسبوعيات الإقليمية التي قمت بتحريرها ذات مرة، حيث خفضت العاملين في قسم الأخبار من 21 مراسلا إلى أقل من عشرة، شائعة ومشتركة.

كانت النتيجة كارثية فيما يتعلق بالتغطية ومراقبة تصرفات المسؤولين. في حالة تغطية أخبار السلطات المحلية مثلا، ثم التخلي عن الممارسة السابقة المتمثلة في تعيين مراسل لمتابعة عمل كل من الأقسام والإدارات الحكومية (التعليم، مرافق الرياضة والاستجمام، الصحة البيئية، الخدمات الاجتماعية.. الخ). وبإضافة انتشار وتزايد إدارات العلاقات العامة في المجالس المحلية، والسلطات الصحية.. الخ، يصبح لدينا "وصفة" للتغطية، تكون عشوائية في أفضل الأحوال ومكررة للنسخة الرسمية في أسوأها. لقد أدى هذا التخفيض في عدد العاملين، وتوقع مزيد من التقارير والتحقيقات من كل مراسل مقارنة بالوضع سابقا (كثيرا ما تحول ذلك إلى معايير نصف ناضجة لقياس "مخرجات" المراسلين)، إلى عدم إدراك العديد من المراسلين، الذين يمضون الآن أياما عديدة وراء مكاتبهم معتمدين على الهاتف، لتجارب الذين سبقوهم - بجيل واحد فقط - والذين اعتادوا بشكل روتيني النزول إلى الشارع والاتصال بمصادر المعلومات (والقراء) بحثا عن القصص الإخبارية المهمة. وإذا بدا ذلك حنينا إلى الماضي التليد، فانظر حواليك في غرفة الأخبار، وتخيل أن

عدد الموظفين قد تضاعف، وفكر كيف ستتغير التغطية (وحياتك في العمل). لقد فرضت أولويات أصحاب الصحف على الأرجح مزيدا من القيود والحدود على كيفية ممارسة الصحافة، مقارنة بأي عامل آخر خلال السنوات العشرين السابقة.

الثقافة الصحفية

تحدد هذه الثقافة ما يعتبره المحررون ورؤسائهم قصة إخبارية جيدة، أو ما يرفضونه بوصفه "مملا"، وتقرر الموضوعات التي يعتقدون أنها "مثيرة"، وتلك التي تفتقد الإثارة. كما توجد الجو الأخلاقي للصحيفة، وبالتالي فهي مسؤولة عن المبادئ الأخلاقية التي تستخدم يوميا في الصحيفة أكثر من أي وصايا نظرية.

في هذه الثقافة، تعتبر "حاسة شم الأخبار" المهارة التي تحظى بأكبر قدر من الإعجاب. ويمكن لهذه أن تكون قدرة حقيقية على رؤية المعنى والأهمية فيما قد يتجاهله الآخرون، أو (في شكلها المتدني) أسلوبا بارعا لتقديم الدنيوي المبتذل بوصفه أمرا خارجا عن المألوف. خدعة الشعوذة الصحفية هذه تمارس من خلال إقصاء السياق، مثلما فعل محرر "نيويورك ديلي بوست" في أوائل الثمانينات، حين ملأ الصفحة الأولى بالأخبار (في يوم لم يشهد أحداثا مثيرة) بعد أن طلب من المراسلين جمع تفاصيل كل جنحة ارتكبت في المدينة، ثم ضمها معا في قصة واحدة متواصلة تحت عنوان: "الأذى المتعمد في شوارعنا".

من ملامح هذه البراعة المضللة إضافة سلسلة واسعة من الأجزاء الصادقة إلى كلٍ كاذب جملة وتفصيلا. والإعجاب بها لا يقتصر على صحف الإثارة الصغيرة الحجم (التابلويد) حيث انطلقت أصلا، بل تمارس تأثيرا واسعا على ما يعتقد أنه سلوك ذكي وماهر في كل أنواع الصحف. أسلوب التحايل على الحقائق والمعلومات المختارة بدقة وعناية، التي تقدم خارج سياقها الصحيح، كثيرا ما يستنسخ في الصحافة، وإن بصيغة أكثر اعتدالا. جزء من هذه المشكلة التي يتعذر تجنبها يعود إلى أن أي حقيقة واقعية، وهي

بطبيعتها مشوشة ومعقدة، يجب تبسيطها، أو على الأقل فرض لغة محددة وتساوق معين عليها، حين تنقل بواسطة الكلمات. لكن كثيرا من الصحف تهمل السياق عامدة متعمدة وتضاعف دون وجه حق هذا التأثير من أجل تحريف الحقيقة وتقديمها بطريقة دراماتيكية. ثم تتم العملية بعد وقت قصير بشكل غير متعمد ولا مقصود.

تقدر ثقافة الصحف الجماهيرية أيضا قيمة السرد السطحي السهل. صحيح أن فيه شيئا من الموهبة، لكنه يشمل "مط" الحقائق ومعنى الكلمات لتشييد بنية استحواذية. ومن أكثر أشكاله شيوعا تزويد القصة بمقدمة مضللة من خلال استنتاج احتمال دراماتيكي مزيف (ومبالغ فيه على الأرجح) من بعض العناصر. الكلمات المتفشية هنا تشمل "ربما" و"قد" و"يمكن" و"يزعم". ومثلما هي الحال مع خدع الشعوذة التي أشرنا إليها آنفا، يتم التسلل خلسة بطريقة يقدم فيها نوع من الدفاع المعقول لكل مكون يستخدم. لكن المقالة الختامية تظل مجرد كذبة. ولا تعتبر عملية الكتابة والتحرير في الصحف "النوعية" الأكثر جدية متحررة من هذا الفساد. وهي هنا تنطلق من مكاتب المحررين الذين يتحدثون عن "رواية القصة من خلال آلاتهم" لـ"تدعيمها وتقويتها". كثيرا ما تستفيد القصص الإخبارية من مثل هذه الأساليب، لكنها تعادل، وتقبل علنا باعتبارها، وضع طبقة براقة على القصة، ومد وتوسيع مضامين كل حقيقة إلى الحد الأقصى، وبالتالي إنتاج صورة إجمالية مضللة.

ما يفعله المحررون اليوم يمكن أن يقوم به المراسلون غدا. فالمراسلون المتنافسون على نشر قصصهم الإخبارية وتقاريرهم يتوقعون من رؤسائهم أن يكونوا مستعدين لتبني الممارسات المتناقضة مع قيمهم، أو تثمينها عاليا (أو الالتزام بها). هذا الفصام الشيزوفراني المهني يبلغ درجة مزمنة حين تحابي الثقافة السائدة/ وتفضل القصص المؤلفة من اللونين الأسود والأبيض، دون لون الحقيقة الرمادي وشكلها المبهم وطبيعتها الوسطية.

تفضل الصحافة كلها - إلى مدى معين - هذه القصص. ومن المؤكد أن حقيقة قصة تدور حول (آ) الذي يخدع (ب) بوثائق مزورة، ثم يستخدم المكاسب التي جناها بخداعه ليعيش في الكاريبي، تظل أشد إثارة بالنسبة لنا جميعا، مقارنة بأخرى تدور حول نزاع حصل بين (آ) و(ب) على صفقة، فكلاهما يزعم تعرضه للخديعة، لنتبين أن الرحلة إلى البلاد ذات المناخ الأكثر دفئا مجرد زيارة عمل لمراجعة الحسابات المالية هناك. ومهما كانت اللغة، أو الصحيفة، ستنال القصة الأولى الأفضلية على الثانية. فهي أكثر خروجا على المألوف ولأخبارها قيمة أعظم كما هو واضح. المشكلة تكمن في أن هذه الأفضلية اتخذت صيغة رسمية واخترقت الثقافة الصحفية. ويمكن للمراسلين والمحررين، وقد عرفوا أن أبسط قصص الأسود والأبيض أشدها إثارة للمسؤولين عن التحرير، أن يبحثوا عنها ويتجاهلوا تلك الأكثر مراوغة وتعقيدا وبالتالي واقعية بالتأكيد. الأسوأ هو الطريقة التي يمكن فيها للرأي المتعلق بما يكوّن "القصة الجيدة الواقعية" أن يؤثر في البحث والكتابة ويجرد القصة من توازنها. هنالك ميل لا شعوري للتوقف عن طرح الأسئلة في المرحلة الواضحة والبسيطة. أما النصيحة الهازلة المضحكة للعديد من محرري الأخبار فهي: "لا تدقق كثيرا".

ولا يبعد خطوة كبيرة عن ذلك اعتبار الخبر شيئا يجب توضيبه وتغليفه ليتواءم مع وصفة أو صيغة معدة مسبقا. في الصحف الجماهيرية على وجه الخصوص، يصمم المحررون على قصص إخبارية من نوع معين - قصص خفيفة سطحية، أو مثيرة تحبس الأنفاس، أو دراماتيكية. يسمع المدراء قصة في المراحل المبكرة، ويقررون العنوان الرئيس أو أسلوب معالجتها، ثم يقومون (أو يقوم المراسلون) بترتيب الحقائق أو معالجتها لوضعها ضمن قالب الصيغة المحددة. إنها صحافة العنوان الرئيسي، التي تقدم للقارئ عالما لا يحدث فيه إلا الغريب والخارج عن المألوف والاستثنائي، عالما لا يوجد فيه إلا المؤكد والبسيط، والصواب والخطأ، والقوالب المنمطة فقط.

تلك هي حدود وقيود العملية الصحفية من المنظور الأشد تطرفا. فالعديد من الصحف لا تصل إلى هذا الحد، لكن تلك التي تفعل، وأولئك الصحفيون العاملون في الصحف الأخرى الذين تشربوا بجزء من هذه الثقافة، لديهم جواب معياري واحد للاعتراضات: القراء. لا تستحضر جماعة أخرى من الناس بمثل هذه الوتيرة للدفاع عما لا يمكن الدفاع عنه لولاها. ولا توجد جماعة أخرى من الناس يجري الاستخفاف بشهيتها وذوقها بمثل هذا الانتظام والعناد، ولا التقليل من أهمية مفرداتها وذكائها بمثل هذا الأسلوب الاستعلائي. "حان وقت الذهاب لكتابة مائتي كلمة لأولئك الذين يحركون شفاههم عند القراءة"، على حد القول الذي يردده كثيرا أحد مراسلي صحف الإثارة (التابلويد) في بريطانيا.

قيم القراء

القراء هم الذين يتم باسمهم اختيار القصص والموضوعات والتقارير، ومعالجة الأخبار، وكتابة المقدمات وإعادة كتابتها، وتنفيذ العروض والتصاميم. لكن من بين جميع العناصر المتعارضة في الصحافة - أولئك الذين يوفرون المعلومات المحتملة (المصادر)، والذين يقومون بمعالجتها (المراسلون، المحررون، أصحاب الصحف أو المتحكمون فيها)، والذين يستهلكونها (القراء) - يعتبر القراء العنصر الوحيد الذي لا يكون حاضرا فعلا خلال عملية ابتكارها. ولذلك ينبغي توقع أذواقهم.

الصحف الصادرة في الأسواق الراسخة والمعقدة والمتطورة تفعل ذلك عبر تشكيلة متنوعة من الطرق. فهي - مع صحافييها - تبني على مر السنين، من خلال الاستجابات التي تتلقاها على القصص الإخبارية، ورسائل القراء، والاتصالات الهاتفية، والشكاوى وغيرها، "معرفة" روائية بما يرغبه قراؤها (لا تعتمد بالضرورة على الوقائع والحقائق). أو بالأحرى معرفة بما تعتقد أن القراء يريدونه. هذا "الفلكلور" الداخلي قد يكون/ أو لا يكون ناجحا، وربما

يكون/ أو لا يكون دقيقا. وإلى أن يخضع لاختبار بحثي جدي، لن يعرف أحد أبدا مدى تأثيره.

وكثيراً ما يفشل ويفتقد الدقة. فهو توليفة تجمع الأحكام المسبقة المتحيزة للصحفيين، والمدراء، وأصحاب الصحف، لإنتاج فكرة على قدر كبير من الشخصانية حول ما يريده القراء، أو ما يظنون أنهم يريدونه. وتكررت على أسماعنا مرات لا تحصى في مؤتمرات رؤساء التحرير عبارة: "ما يريده القارئ هو..". وهذا يعتمد غالبا على ما يفضله المتحدث شخصيا وما يناسب ذوقه، أو أذواق أصدقائه؛ بل أسوأ من ذلك، أولئك الذين يرغب في ممارسة التأثير فيهم.

الخطر هنا يكمن في أن الصحفيين غالبا ما يعيشون في أوساط، ويتبنون أنماطا حياتية، ويتبعون عادات تبعدهم كل البعد عن قرائهم. فقد يخالطون باستمرار، إذا كانوا من الصحفيين "الجادين"، شخصيات في السلطة ومسؤولين كبارا، وبالتالي "يتشربون" ببعض من قيمهم. في العديد من البلدان المتقدمة، يعني دفع رواتب مجزية في العديد من الصحف، أن الصحفيين "يتنفسون" هواء مختلفا، ويأكلون طعاما مختلفا، ويعيشون حياة تختلف عن تلك التي يختبرها قراؤهم. ويتطلب الأمر مخيلة تتفوق على ما يتمتع به معظم هؤلاء الصحفيين لمعرفة أن المطاعم التي يرتادونها، والثياب التي يبتاعونها، والعطلات التي يقضونها، ليست من المتع التي يحظى بها قراؤهم. وحتى إذا استخدموا مخيلتهم، فسوف يواجهون خطر استحضار خليط استعلائي يحرف ويخون أذواق القراء.

يشكل البحث، إذا أجري بأسلوب علمي، جزءا من الجواب. بعض الصحف تصيب حين تستخدم شركات البحوث ومؤسسات استطلاع الرأي لتعرف أكبر قدر من المعلومات عن قرائها: الفئة العمرية، نسبة الذكور/ الإناث، المدخول المالي، المهنة، مستوى التعليم، الاهتمامات، المشاغل، الأذواق، كيف يمضون أوقات الفراغ، أنماط الإنفاق.. الخ. وبذلك تعرف، مثلا، عدد قرائها الذين تتراوح أعمارهم بين

35 – 50 سنة ويقضون إجازاتهم في فرنسا، أو عدد الذين يملكون هواتف نقالة وتتراوح أعمارهم بين 25 – 35 سنة. المشكلة الوحيدة هي أن هذه المعلومات يجري جمعها لصالح الأقسام الإعلانية ونادرا ما تصل إلى الصحفيين.

البحث الذي يجري بمبادرة من قسم التحرير يهتم عادة بمواقف القراء، بالنسبة للصحيفة، وللقضايا والموضوعات التي ستغطيها. ويمكن أن يتم من خلال عمليات مسح واستبيان بسيطة بواسطة استمارة مطبوعة في الصحيفة، "لوحات القراء"، أو بواسطة شركات الأبحاث ومؤسسات استطلاع الرأي التي تصمم استبياناتها لاكتشاف ما الذي يقرؤه الناس (أو بالأحرى ما يزعمون بأنهم يقرؤونه). لكن استطلاعات الرأي والمسوحات قد تصبح شركا للغافلين. ولذلك يجب أن تطرح أسئلة محددة حول نقاط تفصيلية متعلقة بتغطية الصحيفة للأحداث، ولا جدوى من سؤال القراء هل يريدون مزيدا من الأخبار فهم يريدون ذلك طبعا، لكن من أي نوع؟ وما الذي يريدون استبداله بها؟ ثم هنالك مشكلة المستفتين الذين يبلغون الباحثين بما يعتقدون أنهم يرغبون بسماعه، أو أسوأ من ذلك، يذكرون الأشياء المفضلة التي يريدون أن يعتقد الآخرون أنهم يفضلونها، بدلا من الحقيقية.

بعيد عام 1945، كانت صحيفة "نيوز اوف ذي ورلد" البريطانية أوسع الصحف انتشارا في العالم، فقد كانت تبيع كل يوم أحد سبعة ملايين نسخة إلى قراء تشبع نهمهم لأخبار الجريمة والجنس. لكن اختلطت بها بعض الجوانب والملامح "المحترمة". ثم اكتشف رئيس التحرير بحدسه الباطني أن الأخلاق والأذواق تتغير، ولذلك أمر بإجراء استطلاع للرأي. وتم تعيين موظفين لزيارة القراء في منازلهم وسؤالهم عما يعجبهم ولا يعجبهم في الصحيفة. ونظرا لأن الاستطلاع جرى في النهار، فقد كان معظم الذين أجابوا من النساء. ولم تجرؤ واحدة على القول للموظف (الرجل): "أجل، أنا أحب قضايا الاغتصاب والبذاءة، وزوجي مغرم بقصص الرهبان والصبيان". وبدلا من ذلك،

أكد المبحوثون للباحثين أنهم يفضلون الجوانب والملامح "المحترمة" في الصحيفة. قرأ رئيس التحرير النتائج وأمر على الفور بإلغاء أي إشارة للجنس في الصحيفة. بعد أسبوعين فقط، انخفض التوزيع بمقدار خمسمائة ألف نسخة. وبحلول الأسبوع الثالث، عينت الصحيفة رئيسا جديدا للتحرير، فعاد المحتوى إلى سابق عهده، ووصلت المبيعات في نهاية المطاف إلى 8.5 مليون نسخة.

هنالك نزوع للارتباك والتشوش لدى القراء، يدفعهم للقول إنهم يفضلون شيئا بينما هم في الحقيقة يفضلون شيئا آخر، كما يزدرون في العلن بعض أشكال الصحافة في حين يستهلكونها بنهم شديد في السر، لهذا السبب يستخدم الباحثون مرايا ذات اتجاهين لمراقبة الجماعة المستهدفة وهي تقرأ صحيفة أو تناقش محتوياتها دون كوابح أو قيود. بل إن هنالك أجهزة تشبه مقدمة الخوذة (ذلك الجزء المتحرك الذي يغطي الوجه) تثبت على الرأس، وترصد حركة العين، وتعطي بالتالي سجلا دقيقا لما يقرؤه الناس، أو يكتفون بمجرد إلقاء نظرة عابرة عليه، أو يتجاهلونه كلية. فإذا لم تتوفر التقانة أو المال من أجل هذه الممارسات والاختبارات الغامضة الكريهة، هنالك بديل يمكن أن يكون أكثر فاعلية من أي بحث تقاني بالنسبة للصحفيين، وهو قضاء أطول وقت ممكن مع القراء ومراقبتهم. كم عدد الصحفيين الذين وقفوا لمراقبة الناس وهم يختارون صحيفة لشرائها من بائع الجرائد؟ أو قاموا بدراسة ما يفعلونه في الحانات أو القطارات لمعرفة كيف يقرؤون الصحف؟ كل ذلك يشكل جزءا من فضول لا يشبع يجب أن يمتلكه الصحفيون تجاه القراء، ويدفعهم للتحدث إليهم في كل فرصة ممكنة، والالتقاء بهم، ومعرفة أكبر قدر ممكن من المعلومات عنهم.

المعلنون يمثلون العنصر الآخر من قراء الصحيفة، وبالنسبة للصحف الأقل توزيعا، يعتبرون أكثر أهمية - على الصعيد الاقتصادي - من القراء. هذه القوة التجارية هي ما يجعل كثيرا من الناس يظنون أن المعلنين يجربون عضلاتهم

باستمرار لترهيب الصحف وإجبارها على "تفصيل" تغطيتها لتناسب مقاسهم. المفاجأة أن وتيرة حدوث ذلك ليست كبيرة، رغم وفرة الأمثلة. في بعض الأحيان، سحب كبار المعلنين إعلاناتهم بالطبع احتجاجا على تغطية الصحيفة (أو عدم تغطيتها) لأحداث معينة، كما هدد كثيرون بفعل ذلك أو حتى حاولوا إجراء اتصالات هاتفية شخصية ودية مع محرر أو ناشر للوصول إلى بغيتهم، ونجح بعضهم في ذلك.

تتعاظم أخطار هذا الأسلوب حين تعتمد الصحف، التي تصدر في الأرياف والأقاليم عادة، بشكل مغالى فيه على معلن واحد أو مجموعة من المعلنين. لكن ما هو أكثر شيوعا من هذا الضغط السافر تأثير المعلنين المحتملين على تغطية المقالات والتقارير والتحقيقات. فغالبا ما يتعرض المحررون لضغط هائل من القسم التجاري في الصحيفة لنشر مقالات وتحقيقات وتقارير حول موضوعات معينة، لأن من المعروف، أو المتوقع، أنها تزيد الإعلانات. ويمكن أن يؤدي ذلك إلى أن بعض الموضوعات تستقطب اهتماما أكبر من المعتاد. صحيح أن العديد منها لا تسبب ضررا في حد ذاتها، لكن قد يثبت أنها علامات منذرة بزيادة المتطلبات التي يفرضها تركيز الاهتمام على مثل هذه الموضوعات.

هذه الحدود المقيدة للعملية الصحفية - تلك المتوطنة في جمع المعلومات، والتي تفرضها أولويات أصحاب الصحف، وثقافة التحرير، وأذواق القراء - تعني أن علينا زيادة طول إعلان التنصل من المسؤولية الذي اقترحنا أن تنشره الصحف في صدر صفحاتها الأولى، وأشرنا إليه في بداية هذا الفصل:

هذه الصحيفة، ومئات آلاف الكلمات المتضمنة فيها، أصدرتها بخلال خمس عشرة ساعة مجموعة من البشر الخطائين، الذين عملوا في مكاتب مزدحمة وهم يحاولون اكتشاف ما حدث في العالم، من أشخاص يحجمون أحيانا عن إبلاغنا بالمعلومات، وأحيانا أخرى يوصدون الأبواب في وجوهنا.

لقد تقرر المحتوى بواسطة سلسلة من الأحكام الذاتية للمراسلين والمدراء، وعدلت تبعا لما يعرفونه من أحكام مسبقة يتبناها رؤساء التحرير، وأصحاب الجريدة، والقراء. بعض القصص الإخبارية تظهر هنا بدون سياق أساسي لأنه سيجعلها

أقل درامية أو اتساقا، كما أن اللغة المستخدمة جرى اختيارها عن سابق قصد وتصميم من أجل تأثيرها العاطفي، لا دقتها الموضوعية. بعض المقالات والتحقيقات طبعت بغرض وحيد هو اجتذاب بعض المعلنين المستهدفين.

لكل هذه القيود والحدود حتمية تكرار الأحلام المزعجة. لكن في نهاية المطاف، يمتلك الصحافيون ردا وحيدا عليها: تطوير معايير ومهارات عالية شاملة والعمل تبعا لها. فهي درعنا الحامي الوحيد. وحين يفعل الصحفيون ذلك، يمكنهم مغالبة هذه القيود والحدود. وهذا أمر ممكن: ففي كل يوم يحدث ذلك في مكان ما من كوكبنا. المراسلون يفضحون الفساد، ويكشفون الإهمال، والأخطار، وينزعون الأقنعة عن المجرمين، ويكشفون الحقائق العارية التي يرغب بعضهم بإبقائها سرية. الجرائد تنشر المعلومات وتجعلها - على حد تعبير محرر "التايمز" قبل قرن من الزمان - ملكا مشاعا للناس. حتى الصحف السيئة تفيد أكثر مما تضر - ولا يمكنك أن تطبق ذلك على الحكومات مثلا.

"هؤلاء اليانكي يدفعون الأشخاص الموهوبين دون ريب لكشف الحقائق".

مدير "التايمز" في تعليق له
على جي. ايه. مكفاهان.

obeikandl.com

ما هو الخبر؟

"يبدو أن الصحف غير قادرة على التمييز بين حادث دراجة وانهيار حضارة".

جورج برنارد شو

يتمثل دور الصحيفة في العثور على معلومات "طازجة" حول أمور تحظى باهتمام الرأي العام، ونقلها بأكبر قدر ممكن من السرعة والدقة إلى القراء بأسلوب صادق وأمين ومتوازن. ولربما تقوم بالعديد من المهمات الأخرى، مثل إبلاغهم برأيها حول أحدث الأفلام، وكيف يزرعون البطاطا، وأي يوم ينتظر مواليد برج الثور، أو لماذا يتوجب على الحكومة الاستقالة. لكن بدون معلومات "طازجة" ستكتفي الصحيفة بالتعليق على أخبار معروفة. ربما يكون التعليق مثيرا، بل حتى محفزا: لكنه ليس خبرا. المعلومة هي الخبر.

القول المأثور الذي جرى الاستشهاد به مرارا حول هذه القضية كتبه سي. بي. سكوت، رئيس تحرير "مانشستر غارديان"، في افتتاحية موقعة باسمه في الخامس من أيار/ مايو عام 1921. فقد قال إن مهمة الصحيفة:

.. الرئيسة هي جمع الأخبار. وعليها أن تخاطر بروحها لكي تتأكد من أن الزاد ليس ملوثا. ولا ينبغي لوجه الحقيقة المشرق أن يشوه، لا نتيجة ما تقدمه، أو ما تمنعه، ولا في طريقة عرضه.

هذا أمر صعب التنفيذ إن لم يكن مستحيلا، لكنه أضاف عبارة اقتبست مليون مرة: "التعليق حر ومجاني لكن الحقائق مقدسة".

النقطة الأساسية في هذه العبارة هي تناولها القيم المقارنة للحقائق والتعليقات. فإن دخلت غرفة مكتظة بالصحفيين وسألتهم عمن تبنى رأيا حول الحدث الإخباري المهم المتعلق بما يجري على الساحة حاليا، لرفع كل منهم إصبعه. وحين تسأل من يمتلك معلومات طازجة غير منشورة حول هذا الحدث، تنزل كل الأيدي. الحقيقة هي أن كل شخص لديه تعليق، مثير أو يفتقد الإثارة، ولكن لا تملك المعلومات الجديدة سوى قلة قليلة من الأشخاص. التعليق أمر شائع ومبتذل، والمعلومات نادرة ولذلك فهي قيمة.

ما هو الخبر؟

التعريفات العديدة للخبر تعادل في وفرتها تعريفات القصة. أما أكثرها شيوعا وابتذالا فهو: ليس ثمة ما يثير في أن يعض كلب رجلا، الخبر المثير هو أن يعض رجل كلبا. وهذا يذكرنا بأن الخبر يعني كل ما هو استثنائي وخارج على المألوف. لكن الخبر أكثر من مجرد ذلك. فهو شيء "طازج"، شيء لم يسمع عنه الناس من قبل، والأهم أنه يثير انتباه القراء. هذا لا يعني أن تقتصر الأخبار على الأمور التي تؤثر في الجمهور أو تترك تأثيرها على الحياة العمومية، بل أيضا تلك التي تحظى بالأهمية للمصلحة العامة. فخبر طلاق ممثل وممثلة مشهورين لا يؤثر في المصلحة العامة، لكنه يثير اهتمام الجمهور. أما أفضل توضيح لذلك فهو الرسم الكاريكاتوري القديم في صحيفة "نيويوركر" الذي يصور رجلين في قطار، أحدهما يحمل صحيفة يقول عنوانها الرئيس: "عليك معرفة العديد من الأمور الهامة"، في حين حملت صحيفة الآخر عنوان: "إشاعات، فضائح، أمور لا تصدق". أما الدعابة فهي أن الأول لا يستطيع أن يبعد بصره عن صحيفة الثاني.

قيمة الخبر

الخبر إذن هو المعلومة "الطازجة"، وغير المنشورة من قبل، وغير العادية، والمثيرة للاهتمام عموما. يمكن على الدوام تقريبا ترسيخ العناصر الثلاثة الأولى بأسلوب موضوعي: لكن العنصر الأخير - ما هو المثير للاهتمام عموما؟ - هو الذي يسبب كل الجدالات والنقاشات التي تحتدم كل يوم في غرف الأخبار في شتى أرجاء العالم.

لا توجد على وجه العموم مشكلة في أقصى الحدين المتطرفين. فحادثة مقتل 450 شخصا في تحطم طائرة تحمل رئيس الجمهورية فوق متجر في قلب المدينة، تشكل كما هو واضح خبرا مدويا، يضمن أن يصيح كل من يقرؤه " يا للهول!"، حتى وإن قالها في قرارة نفسه. من ناحية أخرى، حين أقول: "اشتريت سيارة جديدة"، فهل يشكل ذلك خبرا؟ إنه "طازج"، وغير منشور سابقا، وغير عادي بالتأكيد. لكنه ليس خبرا لأنه لا يهم سوى أسرتي، ومدير البنك، وبائع السيارات.

الحوادث التي تقع بين هذين الحدين المتطرفين هي التي تثير الجدال والنقاش بين الصحفيين، وذلك في محاولتهم لتحديد ما إذا كانت القصة قوية أو "مثيرة"، تستحق مائتي كلمة أو سبعمائة، ينبغي وضعها في موجز الأخبار أم في عنوان عريض على الصفحة الرئيسية. بالنسبة للمبتدئين، تمثل المسألة - إضافة إلى المقدمات - واحدا من أعظم أسرار حياتهم العملية، وتزيد من صعوبة فهمها السهولة التي يطلق فيها المتمرسون أحكامهم السريعة والواثقة على ما يبدو على القصة الإخبارية. لحسن الحظ، تتوفر بعض النقاط العملية والتفصيلية المفيدة في هذا السياق.

عناصر قيمة الخبر

لنحاول أن نتفق على شيء واحد في البداية: لا مجال للتهرب من العوامل الذاتية في الحكم على القصص الإخبارية. فهي تسود العملية الصحفية

برمتها، ولا يوجد مراسل أو محرر أخبار، مهما حاول كبح جماح أحكامه المسبقة بمهنيته وحرفيته، قادر على القيام بذلك بصورة كاملة. وهذا يتوضح بجلاء حين يحكم على موضوع القصة الأساسي. أنا أعتقد أن التشرد مثير ومهم، بينما ترى أنت أنه محتوم وممل. مثل هذه الذاتانية، رغم تعذر تجنبها، تشكل خطرا دائم الحضور، خصوصا حين يحاول الصحفيون (محررو الأخبار غالبا) اعتبار أحكامهم الشخصية المسبقة موضوعية. لكن الوعي بهذه النزعة يقي من أسوأ مبالغاتها وتطرفها.

الذاتية ليست ما يراه العديد من الصحفيين الشباب حين يدخلون لأول مرة غرفة الأخبار. كما لا يشهدون غالبا - لدهشتهم وذهولهم - مناقشات ومناظرات مطولة حول فضائل ومزايا القصة الإخبارية. بل يختبرون بدلا من ذلك العديد من الأحكام التي تطلق على الأخبار بشكل سريع وواثق، ويبدو أنها تعتمد على الإحساس الجواني أكثر من العلم. لكن العملية موزونة وبسيطة أكثر من ذلك. إذ يبدو أنها غريزية لأن الكثير من الحسابات التي تدخل في تقرير وتحديد قوة القصة تم تعلمها وهضمها إلى حد أن الحكم يطلق بسرعة كبيرة - وأحيانا بسرعة فائقة.

سنحاول فيما يلي تحديد ما يدور - أو ما يجب أن يدور - في رؤوس الصحفيين عند إطلاق الحكم على القصة الإخبارية. ويمكننا أن نطلق على البنود الثمانية التالية عناصر قيمة الخبر (لعدم وجود بديل أفضل). والجدير بالذكر أن خمسة منها تتعلق بالقصة (الموضوع، نمط الخبر، التطور، المصدر، المعرفة، التوقيت)؛ وواحدا بالمتلقين (القراء)؛ وآخر بالمحيط الذي يسكنه القراء والصحيفة (السياق).

الموضوع

يمثل الموضوع فئة عريضة تشمل العديد من القصص - جنائية، بيئية، صحية، ديبلوماسية، اقتصادية، استهلاكية، عسكرية، سياسية.. الخ. كل

الموضوعات متساوية نظريا، لكن بعضها أكثر قيمة من الأخرى. الجريمة مثلا أعلى قيمة من الأزياء لأنها تهم قطاعا أوسع من القراء كما هو واضح. ويمكن تقسيم كل واحدة من هذه الفئات إلى أخرى فرعية. مثلا، الجريمة يمكن أن تشمل القتل، والتزوير، والاختطاف، والابتزاز، والمخدرات، والسرقة، والابتزاز بالتهديد، والاغتصاب، والاعتداء.. الخ. بالنسبة للقراء عموما، تتمتع كل فئة بقيمتها اعتمادا على ندرتها في مجتمع معين أو منطقة محددة. وهنا يتدخل السياق (انظر الفقرات التالية). على سبيل المثال، يحظى خبر الاختطاف بقيمة أكبر من الاعتداء لأنه أقل شيوعا.

نمط الخبر

يتصل هذا العنصر بالموضوعات التي تظهر فجأة في الأخبار والوعي العام بها، وتكتسح ما عداها فترة من الزمن. وهو يتبدى بأوضح صورة في الأنشطة التي ظلت لا تثير الفضول مدة طويلة ربما، لكن ظهرت فجأة جملة أو كلمة لوصفها. وتحت العنوان الجديد المثير اكتسبت أهمية مفاجئة، وتناولتها التقارير بشكل لا يتناسب مع حجمها. "جرائم جديدة"، مثل العنف في طائرات الركاب، أمثلة تقليدية عليها. إن سلب الناس في الشارع، والشجار بين سائقي السيارات، واستخدام السيارات لاقتحام الممتلكات الخاصة، حوادث شائعة مذ وجدت الطرق والسيارات، لكن حين توضع تحت عناوين مثل "لص يهاجم الضحايا من الخلف ويخنقها لسلب أموالها"، و"العنف في الشوارع"، و" سيارة تقتحم واجهة متجر لنهب محتوياته"، تكتسب إثارة إضافية وتصبح النمط السائد للخبر فترة من الزمن.

ويعود تاريخ هذه الظاهرة إلى أكثر من مائة وخمسين سنة. ففي عام 1862، قامت "التايمز" بإثارة وتهييج الشعور القديم بالهلع من التفشي المفاجئ لحوادث "الخنق والسلب" - على حد تعبير الصحيفة - حيث يهاجم اللص ضحيته من الخلف. في بعض المناطق التي تعاظم فيها تأثير مثل هذه

القصص، رفض الناس مغادرة منازلهم. لكن سرعان ما خفت حدة مشاعر الهلع. ومنذ ذلك الحين، شملت أنماط الأخبار فترة "الرعب العظيم" الذي سببه راكبو الدراجات في تسعينات القرن التاسع عشر، عندما أثارت "ديلي غرافيك" ذعر الطبقة الوسطى بتقارير تتحدث عن عصابات من راكبي الدراجات الذين "يدقون أجراسهم لكي يفسح المارة الطريق بينما ينطلقون بسرعة ثمانية أو عشرة أميال في الساعة". في خمسينات القرن العشرين، كان كل رجل من الطبقة العاملة "تيدي بوي"(*). في الستينات، اعتبر كل راكب دراجة من المنتمين إلى "ثقافة الروك"، وفي السبعينات أصبح كل شاب طويل الشعر مدمنا على المخدرات من جماعة "الهيبيين". في الثمانينات، غدا كل تجمع للشباب يعني ممارسة الرقص الجماعي وتعاطي المخدرات. في التسعينات، تحول أي حادث مروري ثانوي إلى "عنف في الطريق". قد يكون من السهل الهزء بكل ذلك الآن، لكن كان من الصعب المقاومة حين يتحدث الجميع عن الحادثة الأخيرة التي أثارت الرعب. بعض القصص التي تفحصت بهدوء وترو المعطيات المتعلقة بالظاهرة تعتبر عادة بمثابة الترياق لمكافحتها.

التطور

يتصل هذا العنصر بالحدث المحدد ضمن الموضوع والتقسيم الفرعي والذي يشكل مغزى القصة. أما ندرته فهو الجزء الرئيس من قيمته، وذلك بغض النظر عن القراء. القصة هنا عبارة عن تقويم مباشر لمدى فرادة هذا التطور المحدد. والمثال على ذلك الخلاف المحتدم منذ فترة طويلة بين بريطانيا وفرنسا حول رفض هذه الأخيرة السماح ببيع اللحوم البقرية البريطانية في الأسواق الفرنسية بسبب احتمال إصابتها بعدوى جنون البقر. التطور الذي شمل خططا لإجراء محادثات سيكون ثانويا (إلا إذا رفض أحد الطرفين اللقاء). ولا ريب أن المحادثات تعقد حول مختلف القضايا في كل الأوقات. لكن

(*) شاب بريطاني يتصف بالقسوة والفظاظة ويرتدي ملابس العهد الادواردي (1901-1910). (م)

أي تطور يتضمن مقاطعة أحد الطرفين للمحادثات والحوار سيكون أمرا نادرا وبالتالي تطورا مهما. القيمة المتدنية لندرة الحدث هي السبب الرئيس، إلى جانب الافتقار إلى التوقيت المناسب، وراء تجاهل القصة أو التقليل من أهميتها. ولتطور الحدث ثلاثة عوامل أخرى:

المصدر

تعتمد قيمة تطور الحدث - في جزء منها - على المصدر الذي وفر المعلومات. فلربما يبلغك أحد السياسيين المنتمين إلى المعارضة إن الرئيس على وشك الاستقالة، لكن إذا كان المصدر هو الرئيس نفسه أو أحد معاونيه المقربين، فمن الواضح أن القصة ستكون أشد تأثيرا. بل تكون أفضل وأقوى إذا اكتشفت بنفسك بأنه يوشك على الاستقالة، لكنه لا يريد الكشف عن السبب الحقيقي - وأنت تعرفه وتبلغه لقرائك.

المعرفة

السؤال هنا يتعلق بعدد الأشخاص الذين عرفوا بتطور الحدث. فأعلى قيمة ترتبط بالقصص الإخبارية التي تشكل التقرير الأول لتطور الحدث المعروف للجميع باستثناء المصدر (أو المصادر)، إضافة إلى زملائه والأوساط المقربة إليه. لكن تنخفض قيمة القصة إذا وصلت إلى الجمهور بعد أن نقلتها صحيفة أخرى. كما أن القصص التي بثت عبر التلفزيون أو الراديو قد تنخفض قيمتها، لكن ليس إلى الحد نفسه. وكثيرا ما تسمع أحد الصحفيين في قسم الأخبار في إحدى الصحف الكبرى يقول عن قصة ما: "حسبت أنني أعرفها"، أي أن هذه النسخة من القصة أصبحت معروفة. وإذا كشف البحث في القصاصات والمقالات المقتطعة من الجرائد عن مثال سابق فإن الصحيفة لا تنشر القصة. لكن محرري الأخبار كثيرا ما يستخدمون العبارة كذريعة للتقليل من أهمية القصة التي لا تعجبهم. فإذا سمعتها مرارا دون سبب وجيه، يجب أن تنتبه لأحكامك المسبقة.

التوقيت

لا تزيد قيمة الخبر بمرور الزمن. لكن الوقت المنقضي لا يمثل أهم العوامل بحد ذاته. فإذا عرفت بتطور مهم طرأ على الحدث بعد ثلاثة أسابيع من وقوعه، فإن العامل الحاسم ليس التأخير، بل عدد الأشخاص الذين عرفوا بهذا التطور في أثناء ذلك. فإن بقيت القصة بعيدة عن علم الجمهور، فإن فترة الأسابيع الثلاثة لن تخفض بشكل ملحوظ قيمة الخبر، بل قد تزيدها، اعتمادا على السبب. لكن قصر المدة الفاصلة بين تطور الحدث وتقريرك عنه قد يضيف قيمة إليه، فالتأخير غالبا ما يكون عاملا سلبيا، حيث يتيح فرصة شيوع القصة بين الجمهور فينقص من قيمتها.

القراء

يمثل القراء أول العوامل التي لا تتصل مباشرة بالجوانب والمقومات المحددة للقصة. أما الأهمية التي يحظى بها الجمهور في الحكم على القصص الإخبارية فهي التي توجب بذل كل جهد ممكن لمعرفة أكبر قدر من المعلومات عن القراء. وإذا لم تفعل لن تستطيع تقدير اهتماماتهم وأذواقهم، وبالتالي تقدير قيمة الموضوع وتطور الحدث. وتصبح كمن سيلقي محاضرة في قاعة مظلمة أمام جمهور مجهول.

لكن ينبغي استخدام معرفتك بالقراء لتستهدي بها أحكامك على وجه العموم، وليس للتأثير فيهم باستمرار بطريقة شمولية. واليوم الذي تعتبر فيه التقارير الإخبارية بمثابة سلعة يجب تسويقها هو اليوم الذي تخرج فيه من عالم الصحافة. هنالك نقطة تصبح فيها المبالغة في إرضاء ما يفضله القراء برأيك "مصفاة" لعزل ومنع القصص التي لا تناسب أحكامهم المسبقة والمتحيزة المعروفة، أو إلغاء الأجزاء المزعجة لهم، مثل السياق، والتفسيرات، والمواصفات. من المهم تجنب الوصول إلى هذا الدرك، لأن جزءا من رسالة الصحفيين فضح الخرافات الشعبية وتحدي الافتراضات المريحة. ولا يمكنك القيام بذلك إن

كنت مبالغا في الاهتمام بردة فعل القراء، ومتلهفا على تهدئتها. ولسوف ينتهي بك الأمر - من حيث المعولية - كعاشق ولهان لا يتلفظ إلا بالكلمات التي يظن أن المحبوب يطرب لسماعها.

الكاتب الإنكليزي الساخر مايكل فراين كان يفكر بذلك حين كتب في "رجال من صفيح" عن جهاز كمبيوتر تمت برمجته لإصدار صحيفة يومية تبعا لنتائج المسوحات والاستفتاءات الجماهيرية. فقد طلب من المستفتين تحديد القصص الإخبارية التي تنال إعجابهم، ووتيرة ظهورها، والتفاصيل التي يستمتعون بها. هل ينبغي نشر قصة عن حوادث تحطم الطائرات كل شهر أم بمعدل أكبر؟ هل يفضلون العثور على دمى للأطفال بين الحطام أم لا؟ وإذا تناول تحقيق صحفي إحدى الجرائم، هل ينبغي أن تكون الضحية فتاة صغيرة، أم سيدة متقدمة في السن، أم امرأة حبلى وعازبة؟ وهل ينبغي أن تكون الجثة عارية أم ممزقة الثياب؟

هنالك العديد من صحفيي الأسواق الجماهيرية في مختلف أرجاء العالم يقاربون المهنة بطريقة كمبيوتر فراين المتخيل نفسها، بعد أن تسلحوا بافتراضاتهم الذاتية حول أذواق القراء بدلا من نتائج المسوحات الموضوعية واستطلاعات الرأي الحقيقية.

السياق

السياق يشمل أي منطقة توزيع (مجتمع، أو بلدة، أو مدينة، أو منطقة) تتصل بموضوع وتطور الحدث وتساعد على تقدير مدى ندرته وفرادته. ولهذا السبب ستتفاوت قيمة الخبر اعتمادا على مكان وقوعه. والسياق يفسر لماذا تعتبر صحيفة دانمركية تصدر في الريف مثلا حادثة إطلاق نار على درجة كبيرة من الأهمية، مقارنة بإحدى صحف الإثارة الصادرة في نيويورك. ففي مكان تعتبر استثناء نادرا، وفي مكان آخر تتكرر عدة مرات في اليوم الواحد.

في بعض الأحيان، يبدو ذلك وكأنه يعمل بشكل معكوس، حين تبلغ الذروة عدة أمثلة لحدث متطور معين. على سبيل المثال، قد لا تعتبر حادثة يعض فيها كلب رجلا خبرا مهما، لكن إذا تكرر ذلك من قبل سلالة معينة من الكلاب فسيحتل الخبر عناوين الصحف. إذ إن كل حدث يضيف شيئا إلى ندرة وفرادة الحالات المتراكمة. الأمر الذي يذكرنا بأهمية ذكر السياق على الدوام، وأحيانا بتفصيل دقيق. في بعض الأحيان، يتبدى السياق ويعرفه الناس، لكن في أغلب الأحوال ينبغي البحث فيه ودراسته بحيث يتعذر فصله عن تطور الحدث في القصة. وعندئذ ينبغي الإشارة إليه ونقله إلى القراء على الدوام.

السياق مهم أيضا للدفاع عن الصحافة ضد الزعم الذي يتهمها بالسلبية، أو إثارة العواطف، أو الاهتمام بالأشياء السيئة فقط. على سبيل المثال، إذا كنت تعيش في مكان يعتبر فيه من الأمور الروتينية أن يشفى المرضى الذين يدخلون المستشفيات أو أن يحظوا بالرعاية الطبية الجيدة، فإن من الأمور المثيرة التي تحتل عناوين الصحف أن يتعرض مريض للإهمال ويموت فجأة. وغالبا ما يدان المراسل الذي ينقل الخبر بوصفه سلبيا. لكن بغض النظر عن حقيقة أن السلبية والإيجابية لا تتعلقان بمهمة الصحفي، فإن على أولئك الذين يزعمون ذلك أن يسألوا أنفسهم: إلى أي درجة مريعة تدنى مستوى الرعاية الصحية بحيث اضطر الصحفي لكتابة عنوان عريض مثل: "مريض يدخل المستشفى وينجو بجلده!".

سلم متدرج للقصص الإخبارية

حالما تدرك هذه العناصر العامة، يمكنك تقدير قيمة الخبر على أساس كل قصة بحد ذاتها. نعرض فيما يلي بعض القصص الإخبارية:

- مبادرة سلام ترعاها الأمم المتحدة في دولة إفريقية تمزقها الحرب الأهلية.
- حظر حكومي على استيراد جميع السيارات الأجنبية.

- ممثلة مسلسل تلفزيوني شهيرة على وشك الطلاق.
- سياسي من المعارضة يدعو إلى مؤتمر صحفي لإدانة سياسة الحكومة المالية.
- سياسي آخر من المعارضة يدعو إلى مؤتمر صحفي لإعلان احتمال ترشحه للزعامة.
- جريمة قتل راح ضحيتها أربع فتيات في منطقة صغيرة من مدينتك بخلال ثلاثة أيام، والمجرم مهووس جنسي.
- إعلان الحكومة مبادرة جديدة لتنظيف المطاعم القذرة.

ما هي أفضل قصة برأيك؟ ما هو العنوان الذي تضعه على صدر الصفحة الأولى؟ حسنا، يبدو التمرين مستحيلا طبعا، إلا إذا عرفت ما هي الصحيفة التي نتحدث عنها ومن هم قراؤها. لذلك، حاول أن تفكر أولا بأكثر صحف مدينتك انتشارا، ثم بالصحيفة الرائدة بالنسبة لرجال الأعمال.

أختارُ مقتل الفتيات الأربع بالنسبة للصحيفة الشعبية، والحظر على استيراد السيارات بالنسبة لصحيفة رجال الأعمال. من أجل الوصول إلى هذا القرار، قمت باختبار القصص تبعا لمقياس قوة القصة الذي استخدمته على مر السنين. لم أحدد شكل المقياس على الورق، بل ظل حتى الآن آليا ولا شعوريا، إذ تقبع:

في أسفل المقياس القصص المتعلقة بما يقوله الناس.

تدور هذه القصص حول صراع الأفكار أو الأفكار الجديدة. فهي "قصص شفاهية افتراضية" - لم يحدث شيء، بل قال أحدهم شيئا. الكلمات التقليدية التي تكشف هذا النوع من القصص هي "يحذر"، أو"يستحث"، أو "يدعو"، في العنوان الرئيسي. أحد أعداد صحيفة "موسكو تايمز" (وهي صحيفة ممتازة ناطقة بالإنكليزية) الصادر في شهر أيار/ مايو 1944، ضم تسعا من القصص الإخبارية الشفاهية الافتراضية من أصل ثلاث عشرة. فهل يعني ذلك أنه لا

يوجد في بلد هائل المساحة يغطي ثماني مناطق زمنية سوى أربعة أحداث فعلية في عطلة نهاية الأسبوع تستحق أن تنشر أخبارها؟

هنالك شركان شائعان يسقط فيهما الصحافيون هنا. الأول هو الافتراض أنه إذا قال السياسي شيئا فيجب أن نسجله. وهذا ليس صحيحا. إذ ينبغي على كل صحفي أن يضع شعارا على مكتبه: "ليسوا سوى سياسيين!". فلمجرد أن اختار كهل ببزة رمادية أن يلقي خطابا أو يدلي بحديث لا يجعل منهما خبرا. ومعظم الخطب والتصريحات تعبيرات عما هو معروف ومتوقع كليا. ولا يصبح التصريح خبرا إلا إذا كشف عن مفاجأة غير متوقعة. فليس ثمة جديد في إدانة سياسي ليبرالي إصلاحي التقدم البطيء للتغيير في المجتمع. لكن إن أعلن اعتناقه الشيوعية، يصبح الإعلان خبرا مثيرا.

الشرك الثاني هو ما دعي بالحدث المزيف الذي قصد منه إثارة الرأي العام: المؤتمرات الصحفية والمقابلات الشخصية.. الخ. لا يعتبر المؤتمر الصحفي خبرا في حد ذاته، كما يظن بعض الصحفيين. فهو ليس حدثا، ولا يؤدي إلى أي تغيير في العالم. كل ما هنالك أن سياسيا أو نجما شهيرا أراد الإدلاء بتصريح، لدوافع ذاتية في أغلب الأحوال، أهمها الدعاية وإثارة الانتباه. أما الشيء الوحيد المهم فهو مضمون الرسالة. لذلك، تعامل دوما مع مثل هذه الأحداث بتشكك وارتياب.

ثم تأتي القصص المتعلقة بما يقول الناس إنه سيحدث.

تتعلق هذه القصص بالتهديدات أو المطالب باتخاذ فعل إجرائي. لقد أفرط السياسيون في استخدام مثل هذه التحريضات، وساعدهم في ذلك الصحفيون المتواطئون والكسالى الذين يجدون حضور المؤتمرات الصحفية أكثر مؤانسة وملائمة من الكدح والسعي بحثا عن القصص الإخبارية الحقيقية. لكن هذه الأحداث تتمتع على أقل تقدير بفضيلة تقديم المعلومات الجيدة والجدية حول وضع افتضحت ملابساته باللغو والكلام الفارغ.

ثم تأتي القصص المتعلقة بما يقول الناس إنه يحدث أو كان يحدث.

تتعلق هذه القصص بالبحث، بالأشخاص الذين ينقلون إليك ما اكتشفوه. شيء متعين ملموس قد حدث.

في أعلى المقياس تتربع القصص المتعلقة بما حدث.

تدور هذه القصص حول التطورات، والأحداث، والحوادث، والكوارث، وجلسات المحاكم، والعديد من الأحداث الواقعية المحسوسة.

هنالك مفهوم مهم للحكم على قيمة الخبر يتمثل في عدد القراء الذين سيتأثرون بالقصة.

كلما زاد عدد القراء المتأثرين بالحدث تنامت قوة القصة الإخبارية عنه. وحين يكون التأثير مباشرا تتضاعف قوة القصة.

كلما زادت ديمومة تأثير ما تنقله، تنامت وتحسنت قوة القصة.

من الواضح أن الحدث الذي يؤثر في الناس يوما واحدا أو نحوه، هو أضعف من ذلك الذي يمارس تأثيرا دائما.

مثلما هي الحال مع كل القواعد القائمة على التجربة العملية، سوف يكون هناك على الدوام استثناءات بين الحين والآخر لهذا المقياس. وكثيرا ما يتحمل نمط الخبر المسؤولية عنها. فالقصص الإخبارية التي كانت قبل أسبوع عديمة الأهمية ولا تحتل سوى مساحة صغيرة في الصفحات الداخلية تنتقل فجأة إلى الصفحة الأولى لأنها ركبت موجة الأخبار الراهنة. التطورات اللاحقة الأخرى (حدث أو حادثة أو كارثة) تعني أن موضوع القصة أصبح فجأة خبرا مثيرا يحتل عناوين الأسبوع. يمكن لذلك أيضا أن يحدث بشكل معكوس، وهذا يفسر غالبا لماذا لا يستحضر السبق الصحفي في تناول قضية من القضايا ما يستحقه من استحسان ومجد وتهليل. ففي الأخبار، التوقيت هو كل شيء.

أخيرا، يجب أن يتذكر المراسل دوما حقيقة أن عثوره على شيء غير معروف لا يجعل منه خبرا. فـ"القصة" التي يحاول إقناع رئيس التحرير بها ربما تطلبت أياما وحتى أسابيع من البحث والدراسة والكتابة، إضافة إلى اقتحام كل أنواع الصعوبات ومغالبة كل أنواع العقبات - لكن ذلك لا يجعلها أقوى وأشد تأثيرا. ففي الظروف الاستثنائية فقط يهتم القارئ بكيفية حصول المراسل على القصة.

"في هذه الصحيفة، يكتمل الفصل التام بين أعمدة الأخبار وبين صفحات الافتتاحية والتعليقات الشخصية والمقالات. قصد من هذا الفصل خدمة القارئ، الذي يملك الحق بمعرفة الحقائق في أعمدة الأخبار والآراء في صفحات الافتتاحية والمقالات والتعليقات. لكن لا يقصد من هذا الفصل في الوظائف أن تلغى من أعمدة الأخبار التقارير أو التحليلات أو التعليقات الصادقة والمتعمقة حين يشار إليها بكل وضوح".

بن برادلي، رئيس تحرير سابق لصحيفة "واشنطن بوست".